ندى ونضال

" مجموعة قصصية "

بقلم

محمد مسعد ياقوت

الإهداء

إلى الطفل الباكي، والأم الثكلى، والمنزل المهدوم...

ومضة

" قد يكون البُوقُ الأعلى هو البوق الأْكَذَبُ، فكثرةُ الخبيث لا تزيده إلا خبثًا ".

محمد مسعد ياقوت

مقدمة أو خاتمة

هذه أقاصيص كُتبتها - سريعًا - أيامَ محنةِ غزة الأخيرة في يناير ٢٠٠٩

كانت تعبيرًا حارًا وحُرًا خرج من قلبي تضامنًا مع الأبرياء، لا سيما الأطفال الذين ظهرت صورهُم على صفحات وسائل الإعلام.

***

هذه المجموعة القصصية، هكذا كما تراها، كأنما هي أوراق كاتبٍ احترقَ بيتُه بنيران القصف الغاشم، فخرجت هذه الأقاصيص مشوهة هكذا، مُبعثرة كما ترى، كأنها أُخرجت من تحت أنقاض منزله ! أو كأنما كتبها على قبر طفلته العمياء !

محمد مسعد ياقوت

yakoute@gmail.com

٠١٠٤٤٢٠٥٣٩

عطور وأحزان

تمشـي الهـوينى، تتتلفـت برشـاقة وخفـة، تتنقـل بـين السـيارات بمهـارة فائقة، تنادي يمنة على القادمين، تنادي يسرة على الذاهبين :

ـ مناديل للبيع ! ورود للبيع !

يكـادون يسْطون عليهـا، أو يأكلونهـا، أو يسـرقون عينيهـا الجميلتين، لـذا كانت ألحاظهم كسِهام نارية؛ تكاد أن تجرح بشرَتها الـمُغبّرة قليلاً الرطبـة الوردية كثيرًا!

كانـت تقـف فـي محطـة السـيارات كمـا الملكـة الجميلـة، تبيـع الـورد والمناديـل، ولا تبيـع غيرهمـا؛ طـاهرةٌ طهـر مناديلهـا المُعطـرة، صـافيةٌ صفاء ورودها الندية، رائعة، فارعة، كالمُهرةِ الضَّامِرِ لم تُركب من قبل .. راسخةٌ، أبيةٌ، لا يقل شموخها عن شموخ الجبال الرواسي.

***

بعد يوم طويل عادت، ومالت إلـى طفلهـا الجميل ذي الربيـع السـابع، قد عشقت النظر إليه وأدمنت الجلوسَ في عينيه؛ إذ تـرى فيـه ملامـح زوجهـا الأسير .

تنسى كل تعب؛ إذ بمجالسة طفلها يزول التعب .

قالـت ـ وهـي تضـاحكة ـ : قل لـي يـا أحمـد .. مـاذا تطمـح أن تكـون فـي المستقبل ؟

قال : وَيْ منكِ ! وَيْ منكِ ! أكثرتي علي بهذا السؤال يا أمي ! صُحافي يا أمي ، صُحافي كأبي ! وفي نفس صحيفته، صُحافي، صُحافي، صُحافي، أفهمتي ؟

فضحكت وشهقت في آخر ضحكها، وقالت :

ـ إنما قصدتُ تذكيرك، وثوثيق ميثاقنا؛ توثيقًا على توثيق .

فتهلل وجهه، وزال غضبه، وقال بلسان الرجل الرشيد :

ـ حسنًا، حسنًا !

قالت: يا قرة عيني غدًا موعد الزيارة ! إذنْ فلتَنمْ ولتنعمْ بقسط من الراحة؛ لتقوى على تحمل سَفرتنا إلى السجن حيث قاعة الزيارات !

قال ـ وقد علَتْه نقاوةُ الطفولة ـ: أمي، هل أعدتي هديةً لأبي جديدةً؟

قالت: يا عدو نفسه ! أوتشك في ذلك ؟

***

ونام ...

واستقيظ قلبها ...

وأخرجت من حقيبتها زجاجة عطر، وأمسكتها ثم ضمتها إلى صدرها، ثم حضنتها بين ذراعيها، ثم أخذت تنثر القبلات على جوانبها، وبشَّرِيطٍ أحمرَ عقدتْ عليها رسمَ قلبٍ، ثم قالت تخاطبها :

ـ يا زجاجة العطر ! أنت هديتي إليه هذه المرة ! فكوني خير رسول، وخير هدية، فأدخلي إلى نفسه السرور، وألمسي جسمه وروحه وقلبه ـ

لمسةَ حنو المرضعات على الفطيم، وامسحي عنه همه، وأشْعلي همته، وأزيلي غمته .

وقبّلتها قبلةً أخيرة، وأعادتها إلى الحقيبة ..

ثم نامت ..

ثم كان الموعد، وخرجت إلى زوجها الأسير، وضحّت بيومِ عملٍ كامل، واصطحبت غلامها وعطرها، وشيئًا من طعام وكساء ودواء، وشيئًا من مناديل وورود ـ وقد استقطعته من بضاعتها خالصةً لزوجها ـ.

***

في صالة الانتظار جلست، وكلما اقتربت لحظة اللقاء؛ أحست برعدة في قلبها وأطرافها؛ طربًا وشوقًا .

تحاول أن تخفف من اضطرابها؛ فتشتمّ من ورودها .

تحاول أن تقاوم عرَقها، فتستعين عليه بمناديلها .

تُخرج زجاجة العطر؛ تُقبلها خلسةً، وتمسح عليها مسحةً، تُحْكِمُ رسمةَ القلب الوردي، تتنهدُ تنهيدة المنتَظِر الولهان، تحدَّقُ إلى الباب الذي سيخرج منه الحارسُ ليُعلن بدء الزيارة، تنظر بكلّيَّتها إلى ساعة الحائط البطيئة، تبتهل إلى الله أن يُعجل لها اللقاء، وتناجي زوجها من أعماق نفسها إلى أعماق نفسها :

ـ آه .. تلهفي عليك تلهف الغَرْثان الجوعان ! تأسُفي عليك تأسف المظلوم الحيران ! مَن لي بك، من لي ؟ أين السبيل إلى حُريتك وحُريّة كل الشرفاء المناضلين، أين السبيل؟ شوقي إليك شوق اللَّهثان الظمئان الى

الماء الزلال ! حرماني منك حرمان السقيم الى الصحة والإبلال ! بلوتي فيك بلوةَ من اجتمعت عليه مصائب الدنيا من هنا وهنالك وهناك، ومن يمين وشمال، ومن خلف وقدام، ومن فوق وتحت، وفي بطني وكبدي، وخارج بطني وكبدي ! يار حُرة كبدي ! يا شدة ألمي!

***

مرت ساعةٌ فوق ساعةِ الموعد، حركات عقربها باتت تلدغ قلبها، لدغ الحيات والعقارب .

الحراس يتخلقون بالحماقة والجفاوة، تعلوهم جلافة وسماجة؛ أشد برودة من ثلج القطب الشمالي أو ثلج القطب الجنوبي .

يقوم واحدٌ من الزائرين يستسمح الضابطَ المسؤولَ في بدء الزيارة، فيردُ الضابطُ ببَزْقةٍ ثم كلمة، أما البزقة فانتشرت على وجه السائل، ثم انتشر نتنها فأفسد المكان، وأما الكلمة، فكانت :

ـ اسكت يا حيوان !

***

دارت تساؤلات في نفسها ـ رأتها أيضًا تدور في وجوه الزائرين، بل في وجه طفلها ـ؛ من الحيوان ومن الإنسان ؟

***

وأُسكتتْ هذه التساؤلات بصرخة الحارس :

ـ بدأت الزيارة !

وانفرج الباب..

وعلى التو، تهرول، واستبقتْ قلبَها البابَ، ومِن خلفها ساقت غلامها، وقدمت بيمينها حقيبة العطر والطعام والكساء والدواء والمناديل والورود.

تتفحص ما وراء الأسلاك، تلك التي تفصل بين الزائر والسجين ..

تجري يمنةً، ثم تجري يسرة، تنادي :

ـ حسام، حسام ! أين أنت ؟

***

والتقى الزائرون بذويهم السجناء، وهي لا زالت تدور وتنادي :

ـ حسام ! أين أنت ؟

ويشاركها طفلها :

ـ أبي، أبي ! أين أنت ؟

***

تسأل الحارس؛ فلا يرد، وظنت أن يكون إنسانًا مُحنطًا، أو دمية لاتسمع ولا تتكلم .

وتسأل الضابط؛ فيبزق في وجهها، ويسبها كما فعل آنفًا..

قالت في نفسها :

ـ وَيْكَأَنه ما خُلق إلا للبزق والسب ! وَيْكَأَنهم ما خُلقوا إلا للفساد في الأرض !

" واكَبِدَا قد قُطعت كَبِدي ... وحَرَّقتها لواعجُ الكَمدِ" [1]

***

[1] البيت لابن عبد ربه في العقد الفريد ١/ ٣٤٩

ثم عادت تدور عند الأسلاك، وتصرخ :

ـ حسام ! أين أنت ؟ أين زوجي معاشر المخلوقين ؟ ردوا علي زوجي ! أخبروني أين أجده !

وتسمع صوتًا من وراء الأسلاك:

ـ يا أم أحمد ! تعالي أمامي هنا أخبرك بشأن زوجك !

فأقبلت نحوه في لهفةِ الأم السائلة عن ولدها التائه، تقول :

ـ أين زوجي؟ أين هو يا رجل ؟ هل تعرفه ؟ هل صحبته ؟

قال: أنا صديقه ـ يرحمه الله ـ .

قالت في صيحه كأنها مُطَعَّمَة بسكرة من سكرات الموت :

ـ آه .. رحمه الله ! ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

ـ قال : إنه ارتقى إلى الله ليلة أمس، وهو الآن في ثلاجة الموتى بالمشفى الملحق بالسجن، فاصبري واحتسبي، واذهبي إلى هناك لتستلمي جثمانه.

صرخت، وسقطت حقيبتها، وتبعثرت أمتعةُ زوجها ـ بما في ذلك الدواء الذي جاءت به له ـ، وعلى الأرض انتشرت عُلب المناديل، وتفرقت حِزَم الورود، وانكسرت زجاجةُ العطر، وفاح عطرها فخيم على المكان المسكُ والأحزانُ .

وهتفت في صمود :

ـ مناديل للبيع ! ورود للبيع !

***

تمت

طفلة فنانة

[في إحدى المدارس التابعة لوكالة الغوث "الأونروا " ٦ يناير ٢٠٠٩]

هي مَدْرسة وليست مَدْرسة..

هي بقايا مدرسة .. لكن هي مَعْلمة !

بقايا أشلاء، ودماء، وملابس ممزقة، ومقاعد محرقة، وحجرات دراسية مخربة...

***

وقفتْ التلميذة سُمية، ترفع بيديها الصغيرتين حقيبتها المحترقةَ نحو الكاميرات وأجهزة البث الفضائية المحتشدة.

قالت سمية: أنا أحب مدرستي ولن أترك التعليم .

***

وحُشرتْ جموعُ الصحافيين بإحدى المدارس التابعة لمنظمة "الأنروا"، تلك التي نالت نصيبها من القصف الإسرائيلي .

قالت سُمية ـ وهي تلوح بحقيتها المحترقة ـ : نحن لا نخاف !

***

بكل شجاعة؛ تصطحب الصحافيين تُعرِّفهم معالم المدرسة، وتشرح لهم باعتبارها شاهد عيان على المجزرة التي تمخض عنها مقتل عشرات التلاميذ.

تشرح، تُحلل، تستنكر، تُعلل !

قالت سمية ـ ولا زالت مستمسكة ببقايا حقيبتها ـ : لماذا يكرهون الأطفال؟

الصحافيون تعبوا، الصحافيون مَلُوا ، ظهرت على وجوههم آثار الجَهد، كأن أرجلهم أوشكت على التحطم من شدة التجول في المدرسة المنكوبة .

قال فرَّاشُ المدرسةِ وقد مر بهم :

ـ وَيْ ! كأنما يعدون مجلدًا أو موسوعة .. لا تقريرًا صحافيًا !

أما سمية .. فهي لم تتعب، ولا زالت راسخة راسية عالية!

***

أخذَتهم سمية إلى مكتبة المدرسة، كانت فاجعة، مشهدٌ أشبه بمشهد الأشلاء المحترقة والمقطعة .

إنها جريمة ضد الكِتاب، ضد القلم، ضد الكلمة، ضد النور.

المكتبة باتت أشبه بفرن حُرِّق فيه ألفُ كتابٍ !

قالت سمية ـ متأبطةً حقيبتها بقوة ـ : لن يُحوْلوا بيننا وبين العلم !

***

قالت سمية : يا حُرة القلب.. يا حُرْقَة الوَجْد ! هذا كتاب العبرات للمنفلوطي، ملقىً؛ أعلاه مقطوعٌ، وأسفله محروقٌ .. ليتك حيًا يا منفلوطي لتُسَطِّرَ عن غزة عَبرة جديدة من عَبَراتك !

***

قالت سمية: يا دُمُوعِي السخينة ! هذه موسوعة " المسيري " عن اليهودية، أجزاؤها متناثرة، متبعثرة كجسم إنسان ضربتُه قنبلة ! ليتَ

المـرض الخبيـث لـم يأكلـك، حتـى تُوّثـق للتـاريخ محرقـة الرصـاص المصبوب.

***

قالت : تعالوا إلى حجرة الأنشطة .. وهناك مفاجئة !

فخرجوا وراءها سراعًا، كأنما أُنْشِطوا من عِقَال .

إن كلمة " مفاجئة " أنستهم النصَب !

ووقفوا خلفها على باب الحجرة، كالتلاميذ خلف معلمهم، أخرجت مفتاحًا، قالت وهي تفتح باب الحجرة: أنا مسؤولة عن نظافة غرفة النشاط .

دخلوها، وكأنما دخلوا حديقة مترعة، أو روضة مونقة، أو دخلوا في زهرة كبيرة عبقةٍ .

دخلوها، وسرحوا فيها راتعين في جمالها وفنونها. إنها حُجرة أقرب إلى لوحة، أو لوحة أقرب إلى حُجرة، أو لوحة في ظاهرها حُجرة، أو حُجرة في ظاهرها لوحة، الفنون تحيط بك من كل مكان، لوحات زيتية رائعة، تصاوير تشكيلية ظريفة، زهور وورود، تحف وتماثيل، دُمًى وعرائس، آلات وأدوت ...

ونسي الصحافيون صحافتهم، وألقوا تقاريرهم، وأخذوا يرتشفون من رحيق فن جميلٍ؛ صنعته أنامل الطفل الغزي.

يـدورون فــى الحجـرة، وكأنمــا يطوفـون حولهــا، يتــأملون يُحملقـون.. ينتشقون من رياها الفني ما هو أطيب من المسك الأذْفَر.

قالـت سـمية ـ ولا زالـت قابضـة علـى حقيبتهـا المتحرقـة ـ : هـذه هـي المُفاجـأَة ! هـذه حجـرة النشـاط، حجـرة الفنـون، لـم يمسسـها سـوء رغـم القصف الحربي للمدرسة، لتعلموا، ولتفهموا، ولتُؤمنـوا .. أن العدوان لـن يقتل إبداعنا !

***

تمت

السجن الجميل

بآهةٍ مع تنهيدةٍ ـ في زفرة واحدة ـ أسند " نضال " ظهره إلى حائط من جدران سجن " مجدو ". يفكر، يتساءل، ينادي، يناجي .. يناجي غزةَ في محنتها :

"كيف حالك يا غزة ؟ ماذا عساه أن يفعل الفسفورُ الأبيضُ بأكنافك؟ لكأني أراه ينزل عليكِ وأنتِ صامدة كالعَلَمِ؛ لا تبالين بطنين الذُّباب ".

***

ويسترسل نضال في مناجاته :

" يا غزة، أنتِ محصورة، وأنا محصور، أنتِ في سجن، وأنا في سجن، يَعزُ عليّ أن تحول الجدرانُ بيني وبين تطبيب جرحك .. حيث أُنعش لكِ الأرواح المجاهدة، وأجلب لكِ الأفراح الغائبة، وأنفي عنكِ الأتراح الراكدة ".

***

ثم يصمت ويتأمل ..

ثم ينفخ الهواء الحارق من صدره، ويستأنف قائلاً :

"مر الأسبوع الأولُ من صب الرصاص عليكِ، ولم تنهزمي، ولم ترفعي الراية البيضاء مستسلمةً، باتت جنباتك تهتف : هل من مزيد ؟ هل من مزيد ؟

" أنا هنا في ركن سجني، بيد أني أشعر أني أنام في كِسر بيت من بيوتك الشعبية، أتجول حرًا في شوارعك، أصلي في مساجدك، أتنسم من حدائقك " .

"يا غزة ...." .

***

فجأة، يخرج نضالٌ من مناجاته على صوت انفجار شديد خارج السجن!

فينتفض نحو باب الزنزانة، يطرق الباب بكلتي راحتيه، ينادي على الحارس : ما هذا الانفجار ؟ ما هذا ...

ولم يكمل الكلمة، حتى سمع انفجارًا آخرَ !

وإذا بحركةِ قَدْمٍ شديدةٍ في طرقاتِ السجن، فَزَعٌ، وهلعٌ، صراخٌ، وعويلٌ..

ثم يأتي الحارسُ ـ مذعورلاً، مهرولاً ـ منتفخ الأوداج ، منتقع اللون، كأن السم حُقن في وريده، يقول بأنفاس الهارب الجبان :

ـ اخرس يا "جويم "[1] ! اخرس، خَرستْ ألسنتكُم وصواريخُكم !

ـ قال نضال ـ في تلهف ـ: أهو صاروخ ؟ أهو صاروخ ؟

قال الحارس ـ في تغطرس ـ : نعم، قبحكم الله، لا تطرق الباب ثانيةً وإلا...

[1] الجويم : مصطلح يهودي، يقصد به غير اليهود، وقال القرآن على لسانهم : " ليس علينا في الأُميين سبيل " .

وانصرف الحارس، وانصرفت معه الكآبة التي كانت تعلو وجه نضال، وأخذته فرحةٌ، واختلطت بعروقه حَبْرةٌ ؛ إذْ علِمَ أن غزة صامدةٌ رغم الرصاص المصبوب على أرضها، والدليل .. هذه الصواريخ، تلك التي تحدث فرقعة في أُذنه كما تغاريد الكِرْوَان.

كلما اهتز السجن على إثر ضربة من ضربات المناضلين، اهتز قلبه طربًا، وانتشت نفسه فرحًا .

ساعتها، رغم سجنه؛ شعر بالحرية المطلقة، وشعر بلذة روحية تعانق وجدانه، وطمأنينةٍ مستعذبة تملك أحاسيسه، وهدوءٍ مُريحٍ، وهواءٍ يسري في زنزانته .. هواء؛ يفوقُ العبيرَ عبيقُه، ويُزْرِي[1] بفتيق المسكِ السائرِ فتيقه؛ فالزنزانة الضيقة لم تسجن غير لحمه وعظامه ودمه، أما نفسه فكانت حُرةً، طلِقةً؛ تسبح في فضاء الله، في سماء الكون، في مروج الأرض؛ تتنسم العبير فوق ما تحب من شُّطآن وغدران وأنهار، ترتشف ما شاءت من رحيق الورود البواسم، تأكل ما شاءت من أينع الثمار والفواكه، في البساتين الجميلة الرائقة، في الرياض المونقة السامقة، في كل زمان في كل مكان ...

... ساعتها، شعر شعورًا أشبه بالحقيقة الملموسة، أن مَن سجنوه هم المساجين.

... ساعتها، أشفقَ عليهم، وقال في نفسه :

---

[1] أي يَنشر

ـ لو تشعرون ما أشعر به من لذة ! لو تحسون ما أحس به من متعة؛ لسجنتموني عليها فوق سجني هذا حسدًا وحقدًا !

- ولو سجنتموني فوق سجني هذا؛ لكان هذا هو عين الغباء! ولنقلتموني من حديقة إلى جنة، ومن روضة إلى فردوس !

- يا أعدائي، لقد جعلتم سجني فراديسَ أرتعُ وألعبُ فيها.

***

تمت

الأستاذة ندى

السيدة ندى، هي مُربية أجيال، ومُعلمة مرموقة، ومشرفة في مادة العلوم بمدارس غزة الابتدائية .

هي في سن كبيرة، ومَن في سنها يجلس في بيته ينسج أكفانه، إلا أنها ارتأت أن تعيش مُعلّمة وأن تموت مُعلّمة، ورغم أنها أُحيلت عن ظيفتها بعد سن التقاعد، إلا أنها لازالت كالنخلة المباركة، صنوان دانية، لا زالت تنتج وتثمر، لا زالت تفيض في نشاط عجيب؛ فكانت تأتي إلى الفصول الدراسية تسد الخلل، تلم الصدع، تقيل العثرة، ترشد المعلمين، تنصح التلاميذ، وإذ ما ترامى إلى مسامعها أن الحجرة الدراسية الفلانية قد تغيب معلمها؛ على الفور تراها هناك؛ لذا حظيت بحب الكبير والصغير، وصارت هي الأب الروحي لمن دونها من المعلمين.

***

تكتب قصصًا للأطفال في إحدى دور النشر المتواضعة . وللأطفال أيضًا، تقص القصص وتحكيها لهم في المدرسة .

لسان حالها :

- إن لم تصل إليكم أقاصيصي المكتوبة، فسوف آتي إليكم بنفسي لأحكيها!

لسان حالها :

ـ نكتب لنخفف عنهم .. نكتب منهم القصص، ونكتب إليهم القصص، حيث نستمد المداد من عَبرات الأطفال، ثم ننفثها فيهم مرة أخرى أقاصيصَ أفراحٍ، تَنثرُ البلور في سماء غزة، تُضيء سقفها، وتكشف ظلمتها، وتدفع عنها ضربات الغدر وشهب النيران .

كانت تقص لتلاميذها قصة في كل حصة .

كانت تُعد القصة كما كانت من قبل تعد مادة الدرس .

وكانت تُحبّرها لهم تحبيرًا جميلاً؛ لتَخْرُج لهم القصةُ في أروع صورة، وفي أزهى عرض، كأنها قطعة نسيج صبُغت بأنوار الرَّبيع .

***

ـ القصة يا أستاذة ! حان موعد القصة ! القصة، القصة !

هكذا تتعالى أصواتُ التلاميذ في لهفة، إذا ما أطلت عليهم الأستاذة ندى بوجهها الباسم الذي يعلوه الحنان والرحمة، بنظرته المتفائلة الواثقة.

ابتسمت الأستاذة ابتسامة معجونة بشيء من الأحزان الراكدة، وأرلست من صدرها تنهيدة سخينة، كانت قد حبستها قليلاً تحت أدراسها، كأن التنهيدة هي الفصل الأول من القصة..

كأن التنهيدة كانت غائرة، مزروعة ثم مصْفرة ثم ذاوية[1] في صدرها..

[1] عود ذاوٍ، وعيدان ذاوية، وقد ذوي العود والبقل: يبس [الزمخشري : أساس البلاغة ص٢١٠]

تنهيدةً تستدر الدموع، وتهز الضلوع، وتحرك نياط القلوب .

ـ قالت الأستاذة : قصة اليوم، هي قصتي !

وسرعان ما ارتسم التعجب على الوجوه .

ـ قالت : أنا !

وأحدثتْ " أنا " رنةً في حجرة الدراسة، قد ارتطم صوتها بالحائط المقابل للأستاذة في مؤخرة الحجرة، فارتد الصوتُ صدىً أوشك أن يضرب رءوس التلاميذ وأقفيتهم .

فخضعوا لهذا الصوت الرخيم العذب، خضوعًا شديدًا، وكأن على رءوسهم الطير.

قالت : أنا يا تلاميذي، رأيتُ أبي يُعذب أمام عيني ثم يُذبح . ورأيتُ أمي تُقتل بضربة واحدة على أم رأسها، ورأيتُ أخي يُقاوم كالأسد الهصور ثم يلقى مصرعه بطلق ناري ..

نعم رأيت هذا بعيني هاتين ..

نعم هكذا فعلوا بأهلي في مذبحة قرية أبو شوشة [1].

***

[1] قرية على قمة تل صغير قليل الارتفاع مشرف على بحيرة طبرية، وهي تابعة لحيفا، وتقوم قرية أبو شوشة على بقعة بلدة "جازر" المدينة الفلسطينية التي تعود بتاريخها إلى العصر الحجري الحديث، وقد ذكر هذه القرية صاحبُ معجم البلدان (٢ / ٤١) باسم "تل الجَزَر: بفتحتين: حصن من أعمال فلسطين". أصدر مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني كتابًا عنها يقع في نحو ٣٠٠ صفحة، تحت عنوان " قرية أبو شوشة" للأستاذين نصر يعقوب، وفاهوم الشلبي .

ـ قالت : ففي فجر اليوم الرابع عشر من آيار سنة ١٩٤٨، بينما كان المؤذن يصدح مُرغّبًا "الصلاة خير من النوم "، وكلمة " لا إله إلا الله " تجوب السهول والأوعار، تتراقص على مُدُودِها الطيورُ السارحة، وتنتشي على هاءَتِها الحيوانات السائبة؛ الجميع في طمأنينة، الجميع في سكينة، الجميع في هدوء ...

فَجْأَةً ، انزوت هذه اللوحة الهادئة، على أصوات زحفِ لواء "جفعاتي" الصهيوني نحو قريتنا، وانقشع الليلُ قبل موعده على ضوءِ ضرْب النار، وضوءِ القصف الجنوني من مدافع الهاون.

قاوم البواسل حتى الرمق الأخير .

دخلتْ قواتُ اللواء فأحرقت الأخضر واليابس.

كان النساء والشيوخ والأطفال والماشية مُخْتَبِئُوْنَ في المغر الأبعد [١] .

كنتُ وَقْتَئِذٍ طفلة في الخامسة من عمري مستترة مع الضعفاء في المخبأ.

ونفد الزاد، فخرجت مع أمي في تخفٍ شديد نحو البيت لنحمل ما يمكن حمله من طعام ومؤونة.

كان بيتنا في وسط القرية، في نهاية زقاق من أزقتها.

وكانت الصدمة !

[1] مخبأ كان قد أُعد للمدنيين في القرية التاريخية المنكوبة

فـي زقاقنـا وأمـام بيتنـا، رأينـا مجموعـة مـن الجنـود الصـهاينة مـع ضـابطهم، ممسـكًا بسـكين عـريض[1]، ينهـالوا علـى شـيخ عجـوز، كمـا القصاب يقصب ذبيحته .

وتسمّرتْ أقدامُنا في مكانها، لا تقوى حراكًا.

لا نسـتطيع التقـدم نحـو البيـت إذ الجنـودُ قـد احتشـدوا فـي الزقـاق، ولا نستطيع الرجوع إلى الخلف فقد أُحيط بنا.

وكانت الصدمة الكبرى !

أن هذا الشيخ هو أبي !!!

صرختُ وصرختْ أمي

آه ! جبـذها[2] أحـدهُم مـن رأسـها، فسـبّتهم ولعنـتهم، فتقـدم الضـابط إليهـا بخطوات مرعبة عنيفة، فضربها علـى جبهتـا بسـاطوره الحـاد، فأسكتوها إلى الأبد .

آه ! صرختُ وصرختُ ...

فقطعتْ صيحةُ أخـي صـرختي، إذ ظهـر مـن وراء الجنـود مـن المـدخل الآخر للزقاق، وعلى التو ـ فـي ثـوان ثـلاث ـ قنص بمسدسـه ثلاثـة جنـود، فأرداهم !

---

[1] هـي البلطـة أو السـاطور، وقد استخدمها الجنـود الإسرائيليون فـي قتـل المـدنيين فـي بعض مذابح ١٩٤٨

[2] جَبَذَ جَبْذاً لغة في جَذَبَ وفي الحديث فَجَبَذَني رجل من خلفي [لسان العرب، (٣ / ٤٧٨)]

فرد الضابط فورًا بطلقة أصابت أخي فطرحته، فأخذ يهتف بي :

ـ اهربي يا ندى ! اهربي، اهربي !

جريتُ كثيرًا ..

ومن هلعي، أكاد لا أشعر بهرولتي، ولا بحركة رجلي وقدمي .

ومن فزعي، أَخرجُ من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق، ومن حارة إلى حارة، ومن بلدة إلى بلدة...

ومن هناك إلى هنا ..

هنا في غزة !

لأحكي لكم قصة تلو قصة !

فيها الآلامُ والعَبرات ـ نعم ـ، لكن حتى لا ننسى حقًا يأبى النسيان

***

تمَّت

العَارُ المَصبُوبِ

لَطَمُوها ..

جريمتها أنّ ولدها ناضل ونافح ومات شهيدًا .

***

قيدوها إلى السجن ..

جزاء أمومتها التي أنتجت شابًا أبيًا ..

***

جردوها، وهددوها بهتك عرضها ..

فالكرامة في زعمهم باتت جريمة . النخوة، الرجولة، النضال، المقاومة، وأخوات هذه المسميات ـ جرائم توجب القتل والسجن والهتك.

***

قالوا لها : اعترفي !

قالت : بأي شيء أعترف ؟ أنا في عرفكم مجرمةٌ اعترفتُ أم لم أعترف، قلتُ صدقًا قلتُ كذبًا، أنا لن أرى نور الشمسِ إلا أن يأذن ربي .

***

هي واقفة عارية كيوم مولدها، قد احتوشوها[1]، يلهَزْها أحدهُم بزنده في موطن عفتها ، يقول : أين الذخائر ؟ أين الأسلحة ؟ أين رجال المقاومة؟

[1] احْتَوَش القومُ فلاناً وتَحَاوَشُوه بَيْنَهم ـ جَعَلُوه وَسْطَهم [ابن سيده : المخصص ١/ ٣٣٠]

قالت وحُزن السنين يَنطق على لسانها: لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف!!!

***

بضربة على صدرها، طرحوها أرضًا ..

صرخت وقالت : الله أكبر !

غمز قائدهُم إليهم أنْ افجروا بها[1] ..

فولولت وصاحت : استحلفكم بالله ...

.....

.....

***

هتكوا عرضها..

خرجوا من زنزانتها، مثل الخارجين من معركة ضارية .

***

قالت لهم :

---

[1] حوادث اغتصاب الأسيرات الفلسطينيات كثيرة جدًا في السجون الإسرائيلية، نشرت الأهرام المصرية ـ وهي جريدة حكومية ـ بتاريخ ١٩ مايو ٢٠٠٤، العدد 42898: فقالت عن بعض حالات الاغتصاب " في قرية شوشا اغتصب الجنود أربع أسيرات فلسطينيات إحداهن تعرضت لهذا العذاب أكثر من مرة، وفي عكا قام أربعة جنود باغتصاب فتاة ثم قتلوها هي ووالدها، وفي يافا قام جنود من وحدة كرياتي باغتصاب فتاة، وفي قرية هونين الجليلية التي شُرد أهلها في النكبة ودمرتها اسرائيل بالكامل، اغتصب الجنودُ فتاتين ثم قاموا بقتلهما"

ـ هذه هي المعركة التي أفلحتم فيها؛ معركة العار .. العار الذي صُب عليكم صبًا .. وجبنتم في غيرها من المعارك .. ضُربتْ عليكم الذلةُ في كل وادٍ، بُؤْتم بالكراهية في كل نادٍ.

أنت عقابين كواسر أمام الصبايا الأسيرات .

وأَذْنَاب جرْذانٍ مُنَكَّسَاتٍ أمام الـمُناضلين الأشاوس .

***

أسندتْ ظهرها إلى أحدِ جُدران السجن القذر..

كان الحائط بالنسبة لها وسادة ناعمة محشوة بريش النعام !

كانت آلامها عاتية، وقروحها متنوعة، وكُلُومُها متعددة، وجروحها كثيرة كثيرة..

آلامُ الجوع تفري أمعائها، وتُضعضع أَعضائها، وآلام الجروح تمزقها، وتحرقها، وتسحقها؛ جروح الجسد وجروح النفس على حد سواء..

صارت كتلة آلام..

كلُ جزء منها يَئِنُّ أَنِيناً، ويصرخ طويلاً....

لم يبق موضعٌ في جسدها إلا وفيه أثر عذاب، و موضع جراح !

تماماً .. كما لم تبق ذرة في نفسها إلا وفيها جرح عميق ينزف ألماً وحسرة !!

***

شردت بذهنها، وتساءلت كثيرًا :

هل كل ما يحدث هنا في هذا السجن يخرج من بشر؟ من إنسان ؟

غير معقول أن هؤلاء المخلوقات من جنس آدم !!

إنهم مخلوقات تسمع وترى وتنطق و تمشي على رجلين...

لها ذراعان و هيكل بشري .. سبحان الله !!

هل حقاً هؤلاء يحاربون الإرهاب ؟!

إنهم أرهبوا الأجنة في بطون أمهاتها ..

بل .. قتلوا الأجنة ببقر البطون ..!

ربما كانوا يبقرون هذه البطون باعتبارها المصدر الرئيسي لتفريخ الإرهابيين ؟!

ممكن !

إذا ما ابنُ ملعونٍ قال لي بعد اليوم : " حقوق الإنسان مرعية" ـ لأبزقن في سحنته بزقةً يَضْرِطُ فيها أسْتُهُ !

هل حقاً .....

فجأة .. تتوقف تساؤلاتها..

وتفيق على انفتاح باب زنزانتها، فقد جاء الجنود لمعركة أخرى.

***

تمت

لنقتلَ الظلام !

على شاطىء بحيرة البرلس[1]، ومع انصراف الليل؛ انسل إلى مركبه .
وعلى رأس المركبِ جلسَ قُبالَةَ الشمس التي أوشكت أن تخرج من سجنها. جلس متربعًا نحوها؛ يحسبه الجاهلُ عابدًا للشمس، أو متريضًا لليوجا، أو مصلوبًا على عموده الفقري.
أوشكت الشمسُ على الخروج من مُعْتَقلها، وهو يرى أشعتها رسائلَ ظفر، وأناجيلَ نصر، تُنذر بالاستيلاء على كل عَتَمةٍ، وظُلمة، وخرِبة وحُفرة...
يرى أشعتها تباشيرَ تَبْرُق؛ لتقتل الظلام الذي عشش في الوجود .
ذلكم الظلام الذي حَجْبَ، ومَنْعَ، وحَظْرَ، وسَجْنَ .

***

ها هي الشمس تخرج لتقتلك أيها الظلام !
ها هي تتحرك ببُطْءٍ، لكنها تسحقك بقوة !

***

نعم ..
خرجت، وظهرت، وأنارت الأحلاك . خرجت وظهرت وأنارت الأفلاك

[1] شمال دلتا مصر بين الإسكندرية ودمياط

لا تلوي على شيء، تمحو تلك الظُلَم، ظُلمة تلو ظلمة، كأنها تُكّفر ذنوبَ ألف ألف سنة عن كاهل هذه البشرية.

***

يا مصابيح الدنيا التي طالما انطفأت وأُطفِئت ـ تعالي !

تعالي لتصطلي بنور الشمس الحُرة، لتبعثَك الشمسُ منيرةً من جديد، ولتُرسلك إلى أصقاع الأرض وأكنافها؛ تُبلّغي رسالتها إلى الناس أجمعين، رسالة النور، رسالة الشمس الهادية .

***

يا مصابيح الدجى طيري إلى تل أبيب، إلى حيفا، إلى يافا، إلى القدس!

أخرجي الظلام، طهري المكان..

علمي الأبيض والأسود والأحمر والأصفر !

علمي القاصي والداني تعاليم الشمس !

انثري ستائر الأفراح فوق كل عروس !

جددي أثواب المسرة التي أخلقتها الأحزان عقودًا وأزمانًا !

ابذري بذر السعادة في الأرض هنا وهناك؛ ليسعد الناسُ من بعدنا أبد الآبدين، ليحصدوا الخير بفضلنا بعدما عَزّ، لينعموا بالعدل دومًا بعدما غاب .

***

... ولا زال في استغراقه ..

... ولا زال في أحلامه ..

لا زال هكذا حتى صَمَدَته[1] الشَّمْسُ .

لكنه أحس بصَمْدَتِها كما القُبلة من ثغرِ عذراءٍ ناهدٍ، هزته هزةً تماسك لها كيما يثبت على مركبه فلا يقع في البحيرة ..

ومنحنته قُبلةً أخرى ؛ زادته إيمانًا إلى إيمانه، ونورًا على نوره، فدبت فيه الحياةُ من جديد، فأعطى ميثاقه للشمس على أن يناضل من أجل النور حتى الرمق الأخير .

***

تمت

[1] يقال : صَمَدَته الشَّمْسُ أَي صَقَرَته بِلَفْحِها [تاج العروس، ٢٩٥/٨]

دواءٍ أمنية

استيقظ على الحقيقة التي كانت حُلمًا؛ لقد حصل على المرتبة الأولى من بين زملائه في الجامعة، ها قد اقترب الفصل الثاني من الحلم؛ الالتحاق بهيئة التدريس في كُليّته التي تخرج منها عن جدارة، ذهب ليستخرج نسخة من شهادة التخرج، بالفعل حصل عليها، مكتوبٌ فيها أنه حاصل على تقدير "جيد جدًا مع مرتبة الشرف "؛ بالفعل هي أعلى درجة، بالطبع ذهب إلى مكتب عميد الكلية، دخل أولاً إلى مكتب السيدة المُساعدة[1]؛ وذلك لقنص دقيقةٍ من وقت العميد، قالت في شراسة اللَّبُؤة:

ـ من أنت ؟ ومن أين ؟ وماذا تريد؟ اذكر كل شيء بالتفصيل لو سمحت!

أُرتج عليه، وأُحصر، حاول أن يتكلم؛ تلعثم، عاود المحاولة؛ تهته وتَرَدَّد...

قال : أنا المُسيء خذوني !!

قالت في غضب: ماذا يا ولد ؟

قال : بل أنا الطالب الأول على الفرقة، وأبغي مقابلة سعادة العميد فحسب.

تأففت وقالت :

---

[1] أي السكرتيرة. . والسكرتارية أصلها : SECRETARY، وهي مشتقة من SECRET، أي : سر، وهذا يعني أن السكرتير هو أمين السر، أو المساعد، وقد وضعناها مكان اللفظة الأجنبية؛ احترامًا للغتنا الجميلة .

ـ أنت " خليل " ؟

تهللت أساريرُ وجهه ـ وبراءة الأطفال في عينيه ـ، وقال :

ـ لي الشرف أنْ عرفتي اسمي يا سيدة الكل!

***

قالت :

ـ سيادة العميد منهمكٌ جدًا في شغله، ووقته لن يسمح بمقابلتك، بيد أنه يسمح بقابلة مفتوحة لجماهير الطلاب لاسيما الصعاليك؛ وذلك في يوم الاثنين من الأسبوع الثاني من كل شهر، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا كل شهرين، علمًا أن الشهر الذي سيصادف زيارته السنوية لأوربا؛ لن يتمكن فيه من مقابلة الطلاب، وهو الشهر الثاني من الآن، ومن ثم من الممكن أن تُقابل سيادته بعد أربعة أشهر من الآن، ومن ثم موعدك ـ إن شاء الله ـ بعد إذن الله ـ يوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر يونيو ٢٠٠٩م، حذار من التأخير !!!

ثم صاحت : انصرف !!!

***

رجع إلى بيته، لكن لم ينهزم، دخل إلى فراشه، لكنه لم ينم عن نضاله .. عَدَّ الأيام عدًا، و عَدَّ الليالي عدًا ..

الساعاتُ تمر عليه ثقيلة ..

كأن مؤشرَ الساعة يحرك جبلاً عن مكانه ..

كثيرًا ما تخيل يوم لقاء العميد، ومثّل دورًا تمثيليلاً مرةً في واقعه، ومرات في خياله؛ يستحضر في ذهنه هذا اللقاء دائمًا، لقد حفظ ما سيقوله جيدًا، وحَبّره تحبيرًا، وحسنه تحسينًا، وجَوّده تجويدًا، حتى قام هو مرةً بدور العميد !

***

... جاء اليوم الموعود !

دخل إلى مكتب الـمُساعدة، صبر على بذاءتها، واحتسب صبره على وقاحتها، وكتم تقيِّئه من رثاثتها وسحنتها القَمِيئَة ، بل أخذ ينافقها، ويقول : سيدتي الجميلة ! يا أوضء امرأة في الكون، كلام من هذا القبيل، وفكر مرة أن يحفظ لها قصيدة لنزار قباني ـ ثم تراجع عن ذلك؛ فقد أخذته الشفقة والرحمة على أدب ذلك الشاعر ..

الآن بينه وبين العميد بابٌ أوشك أن يُفتح .

مرت دقائق قليلة، لكنْ كانت على نفسه ثقيلة .

دخلت الـمُساعدة إلى العميد، وفي لَيَان العَنَزَة، وخفة الإوَزَّة[1] ؛ تكلمت إليه، مع ضحكةٍ وهزةٍ، ثم أخبرته أن هذا الطالب قد أخذ موعدًا مع سيادته منذ عدة أشهر، أخبرته أنه طالب فقير ابن فقير، وفلاح ابن فلاح، ثم أسلمته ورقة من الجهات الأمنية بشأن هذا الطالب .

---

[1] يكتبها بعض الكُتاب مفتوحة الهمزة، والصحيح الذي أثبتناه، وانظرها في أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري،كتاب تقويم اللسان، باب الأفعال التي تهمز والعوامُّ تدعُ همزها، ص ٢١٦، طبعة دار الطلائع.

خرجت إليه، قالت في شراسة :

ـ حُدُودُك مع سيادة العميد ثلاث دقائق، وفي الدقيقة الرابعة تكون هنا أمامي، وإلا ويلك مني !

***

في أدب جم؛ تحمحم، وتلطف، قرع الباب بأطراف أصابعه؛ قرعًا يحاكي رِقة العذراء في خدرها .. أُذن له، تقدم إليه بخطوات حانية، كان العميد مشغولاً فعلاً كما أخبرته السيدة المساعدة؛ كان ظَهْرُ سيادته وقفاهُ نحو الباب، أمَّا وجهه وسحنتُه ـ التي لم يرها من قبل ـ فكانت نحو التلفاز، يشاهد فلمًا للممثل عادل إمام، نعم فقد كان باديًا على الشاشة من أول وهلة .

قال سيادته : ماذا تريد ؟

قال خليل ـ في ثقة؛ فقد أعد نفسه لهذا الموقف ـ : أنا الطالب الأول يا سيادة العميد، وكنت أطمح في الانضمام لهيئة التدريس مُعيدًا، في قسمي وكليتي تحت إمرة سيادتكم.....

قاطعه قائلاً ـ بعد أن حوّل وجهه إليه ـ :

ـ اسمع مني يا بني !

قال خليل :

ـ تفضل يا سيدي

قال : هل تريد مني الصدق الصُّراح، أم الكذب والخداع ؟

قال : بل الصدق، والصدق الصُّراح !

قال : أرحْ نفسك، لن تنال هذه الوظيفة، وذلك لنشاطك السياسي، وهذه الورقة التي كُتبت فيك من قِبل الجهات الأمنية .

وأبرز العميدُ الورقة، ودلاَّها له كعنقود العنب، وقال :

ـ انظر في نهاية الصفحة، انظر هذه الجملة المطبوعة بخاتم " الأمن "، اقرأ!

قال خليل : ماذا عساهم أن يكتبوا وأنا الذي لم أقترف جُرمًا!

قال العميد : إذنْ لا بد أن تقرأ !

فنظر خليل إلى الكلمة التي كلمت مهجته، فاغرورقت عيناه قبل أن ينطقها، وقد سبقت عَبرتُه لسانَه :

ـ " دواعٍ أَمنية " !

ضحك خليل ضحكة مجنونة، والعميد يحملق فيه في وجوم، فلم يعد يعبء بالعميد ولا بمن أتي به، ولا بمن كتب هذه الورقة !

أخذ خليلٌ يتندر بالكلمة ويرددها وهو يُرقِّصُ يده :

- دواعٍ أَمنية ! دواعٍ أَمنية ! دواعٍ أَمنية !

قال العميد :

ـ أتضحك على خيبتك ؟

قال خليل :

ـ " ولربما ضحِك الحَليمُ من الأذىَ ... وفؤادهُ من حَرِّه يَتأَوَّهُ " [1]

وقام خليل، وولى العميدَ قفاه، ولا زال يتندر بهذه الكلمة، مر على مكتب السيدة القبيحة، زمجر في وجهها، وأَرْعِدْ، وَأَبْرِقْ؛ حتى فزعت منه واضطربت، وواصل طريقه نحو الشارع، لا زال يغني ويفرقع بأصابعه:

- دواعٍ أَمنية ! دواعٍ أَمنية ! دواعٍ أَمنية !

كلما مر على رهطٍ نظر إليهم، يضاحكهم، قائلاً :

- دواعٍ أَمنية ! دواعٍ أَمنية ! دواعٍ أَمنية !

يحسبونه مجنونًا، ويُحسبهم عقلاء ..

عاد إلى بيته، منهزم الجسد، منتصر النفس، مكسور الجناح، قوي القلب.

رسم بقلمه ـ بالخط الثلث ـ على قطعة من الورق المقوى، كلمة "دواعٍ أَمنية"، صعد على كرسيه، علقها أعلى الحائط المقابل لمكتبه المتواضع، نزل، تراجع إلى الوراء، وهو يحدق فيها، ثم رفع سبابته نحوها في حزم، يُخاطبها في صرامة :

ـ أيتها الكلمة الوقحة ! ستعلمين غدًا من أنا !

***

تمت

---

[1] البيت يُنسب لعلي بن أبي طالب، ويُنسب أيضًا للأحنف بن قيس، انظر : العقد الفريد ١/١٨٠

العَمْياء

حـي التفاح ـ في ١٢ يناير ٢٠٠٩

لم يحزن كثيرًا على بيته المُهدّم، ولا على فقد ذراعه الأيسر ..
إنما كان جل حزنه وبكائه على طفلته المريضة التي شوهتها شظايا القصف المدفعي الإسرائيلي، التي جعلن منها طفلةً معاقةً مع كونها ـ قبل القصف ـ طفلة مريضة، لا تسمع ولا تبصر .
كان قبل القصف، على مدار عام يتنقل بطفلته من مشفى إلى مشفى، ومن طبيب إلى طبيب .
الآن، بعدما كانت مريضة صارت مريضة ومُعاقة .

***

يريد أن يصرخ بكل قوته ...
يريد أن يبكي إلى أن يفقد بصره ...
يحس أن في حلقه غصة تكاد أن تقطعه، وفي قلبه مرارة تكاد أن تقتله.
يريد أن يبكي في حضن كل أم.
يشعر أن البشرية كلها لن تَسْطع أن تخفف عنه مصابه في ابنته الجميلة، التي كانت جميلة، التي شوهتها أسلحة الشر .
لكنه يريد أن يبوح ..
يريد أن يفضي بذاتِ نفسهِ إلى إنسان، إلى أي شيء..

يريد أن يشكو له بثه وحزنه بعد الله رب العالمين.

***

أمسكَ بالقلم ..

أخذ يحدثه، يكتب به إليه .

فكتب يقول لقلمه :

" يا قلمي، دعني أبوح لك بكلمة، علك تواسيني بعَبرة، قدمت بين يديها عَبرات، هذه طفلتي العمياء، لا ترى ولا تعقل، قعيدة عاجزة، إذا نظرت إليها نظرت إلى صفحة من صفحات الموت، فهي ميتة ومعدودة من الأحياء، وحية تحسبها من الأموات، حال عليها الحول الأول من عمرها؛ ولم تر النور، كالزهرة المشوهة التي كتب عليها القفول".

"تصرخ في هدأة الليل، كأنما تستغيث من قبر دُفنت فيه، صرخةً مرعبةً، ليست كصرخات الأطفال التي تشبه الضحكات، إنما هي رنة ذبيح، وأنة جريح، تخرج من أعماق القبر إلى مضاجع الآمنيين؛ فتسدل عليهم ستار الفزع والأسى".

"أضمها إلى صدري، فإذا لامس صدري صدرها؛ شعرتُ أن صدري أو صدرها - لا أدري - ينزو ألمًا، وينزف دمًا .. أضمها وكأنما أضم إلى نفسي أشلاء إنسان، وبقايا أسمال، تزفر الزفرة؛ تذبح بها قلبي ذبحًا، أترنح من هول آلامها كالذي يُغشي عليه من الموت. أقول هل في الدنيا

أتعس منك أيتها البنت البريئة ؟ أيتها العمياء المشلولة ؟ لكنْ قد جعلك الله رحمة لنا، وتذكرة وموعظة بما نحن فيه من نعم ..." .

***

يكتب ويكتب ، ويبوح ويبوح ..

وينادي على ابنته التعيسة قائلاً :

" يا ابنة مَن، كلما تأوهتي، تأوه لك منه كُل عضو وضلع وعِرق .. لو نطقتي بكلمة " أبي " لكانت أحب إليه من الشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، ولو ارتسمتْ البسمةُ على ثغرك، لحلفَ أنها الجنة في ثناياك وأنك في ثناياها".

"يا ابنة مَن، كلما توجعتي، توجع فيه اللحم والدم والعظم . كيف يطيب العيشُ لأبٍ يموت لك في اليوم موتات، وقد بذل لك الطب من الأقاصي والأداني" .

"أحبك يا طفلتي، وهل الحب إلا زفرةٌ بعد زفرةٍ، وحرٌ على الأحشاء، ووخز في الضلوع، وفيضُ دموع ودموع" .

"ويشتد حبي لك، كلما اشتد البلاءُ بكِ، فقد جعلك الله مشكاة أحزاني، يا نور إيماني، أستضيء بنورك في كتاباتي، وأستلهم من جرحك في مقالاتي، وجرحك هو جرحي .. هذا الضوء المتشعشع في سواد ذؤابتك الرقيقة أستصبح به، وكأنما أفتح في وجهك كتاب الله، أزداد يقينًا بالنظر

إليكِ، وإيمانًا بالجلوس بين يديكِ. سلام الله عليك يا فلذة كبدي موعدنا الحوض، ومجلسنا الجنة، حيث أراك بخير صحة، تسمعين وتبصرين، قد أعاد الله إنشائكِ سليمةً صحيحة، أسمع منك كلمة " أبي " التي لم أسمعها، وأرى في محياك الضحكة التي حُرمتُ منها".

***

وضع القلم برفق، كأنما يشكره؛ أن سنح له أن يبث له من همه...

ومرت أيام ...

***

ومرت ليالٍ ...

وكان ما بثه لقلمه، وخطه بمداده، ما يلي :

" الحمد لله . إنا لله وإنا إليه راجعون "

"بُنَيَّتِي ! الآن نفضتُ يديَّ من تراب قبرك ـ يا فلذة كبدي ـ، بعد دوّامة مرضك الذي حال الحول عليه دون إبلال، وكانت أيامك لا ثالث لها : يومٌ يشتد فيه المرض، ويومٌ يخف فيه من وطئته؛ كأن المرض يلتقط أنفاسه لينقضّ عليك من جديد؛ في حَلَبةِ صراعه مع جسمك الغض الضعيف، الذي أنحلته الأيام في حجرات المشافي، وأضنته الليالي بأدوية شبيهة بالسموم، وقد تفحصتك أيادي الأطباء وأيادي الممرضات؛ ولكأنما ينقّبون عن داء جديد بعد داء قديم، أو عن شظية جديدة، بعد شظية قديمة".

" لقد رحمك الله .. رحمك أن أراحك من هذا التعذيب من هذه الوخزات التي تنخر في جسمك المشلول القحل، الذي لم يمش قط على الأرض، رحمك من أيادٍ قاسية، وليالٍ مرعبة، ونقلك على أكف الرحمة إلى أرواح حانية، في جنة عالية ".

***

" بُنَيَّتِي ! لستِ أحب إلي من أطفال أخواتك في أحياءٍ غزة الأخرى، وليس مصابي فيكِ أشد من مصابي فيهم، بل أرى جرحي فيكِ أخف من جرحي في بناتٍ يُتمت وأطفال قُتّلتْ ..

... موعدنا الجنة، والسلام"[1]..

***

تمت

[1] القصة مستوحاة - أيضًا - من حادث وفاة طفلتي التي ماتت في ٢٠٠٩/١/٦، وكانت طفلة معاقة .

الدواء الـمُر[1]

" أبي، إلى متى أَجْرَع هذا الدواء المُر ؟ "

هكذا كنتُ اقرأ في وجهها ذي الربيع الواحد.

***

" أبي، إلى متى أَجْرَع هذا الدواء المُر ؟ "

تقولها بآلامها، لا بلسانها المتخرّس ..

تقولها برعدة المرض، لا بشفتيها المتقرحتين ..

تنطقُ بها عيناها، التي لا تر بهما، وتنطق بأشد من تلك الكلمات؛ ذلك كلما أَلْقَمْتُها جرعةً من دواء مرضها العضال .

***

الحزن والضنى، والهم والضوى[2]، تصاويرٌ معلقةٌ في غرفتها التي أقبرتها عن الحياة..

لا ترى في غرفتِها لعب الأطفال ..

بل ترى فيها علبَ الأدواء، وبطاقات الأطباء، وتصاوير الأشعة المقطعية، فهي دُماها وعرائسَها .

***

[1] هذه القصة أيضًا مستوحاة من حادث وفاة طفلتي !

[2] الهزال

كلما حان موعد الدواء؛ ترتعد من الخوف؛ كأنها تشعر باقتراب هذا الدواء من أحشائها؛ فيعركها عَرْكَ الرَّحَى بِثفَالِها [1]، فيُفري في جسدها القحلِ كلَّ ودَجٍ؛ حينئذ يربدُّ وجهها البريء، وتختلجُ أعضاؤها الغضة .. فتحمر وجنتاها، وتدمع عيناها، وتضطرب شفتاها .. تضطرب بهَمْهَمةٍ وهَيْنَمةٍ تفهمها الملائكة.

***

قلتُ لها :

ـ يعز علي أن أجرعك هذه الجرعات الحنظلية، يا بنيتي المسكينة !

فتُكررْ ما قالته دومًا؛ وكأنها تنكأ القروحَ المنكوئة في قلبي بسكين ملتهبٍ حادٍ، فتقول بلسان اللحوح الذي لا يتعبه إلحاحه:

ـ أبي، إلى متى أجرع هذا الدواء المُر ؟

قلتُ لها بلسان الواعظ المصبر :

ـ هكذا الدنيا يا بنيتي، مُرُها أكثر من حلوها، وحلوها مُنّغصٌ لا يدوم، ولا يستقيم لبشر، بيد أن الله يحبُنا إذا ما صبرنا على مرها، وشكرناه على حلوها .

***

عادت، وقالت ـ وكأنها لم تفهم إجابتي ـ :

ـ أبي، أبي، إلى متى أجرع هذا الدواء المُر ؟

---

[1] عَرْكَ : طحن ودلك، والرحى : الطاحونة والصخرة يُطحن بها، والثفال : ما تطحنه الرحى، ومن قول زهير في معلقته :
فتعْرُكُكم عَرْكَ الرَّحَى بِثفَالِها ... وتَلْقَحْ كِشافاً ثم تَحْمِلْ فتُتْئِمِ

قلتُ :

ـ هكذا النفس البشرية؛ يُسكرها الحلو، ويُوقظها المر، تستعذبُ الطعام اللذيذ، وقد يكون فيه هلاكها، وتتأفف الدواء المرير، وقد يكون فيه شفاؤها .

ومن لكِ بطعام دون تنغيص !

ومَن لكِ ـ أيضًا ـ بدواء دون تنغيص !

لكنّ تنغيص الطعامِ يكون بعده ، وتنغيص الدواءِ يكون قبله .

وحياةٌ كهذه، أوّلها تنغيصٌ، وآخرها تنغيص، لهي أحقر من أن نبكي عليها!

***

وكأنها لم تسمع إجابتي .. لذا قالت ـ مرة أخرى ـ:

ـ أبي، إلى متى أجرع هذا الدواء المُر، يا أبي ؟

قلتُ :

ـ بُنيتي، الصبرَ، الصبرَ، ألم تعلمي بعدُ أنكِ في الحياة الدنيا؛ أتظنين أن الدنيا جنةٌ لا مرارة فيها، متى احلوْلت الدنيا لغني أو فقير، أو كبير أو صغير، أو صحيح أو سقيم ـ متى ؟

سلي الناسَ، سلي الشباب، سلي الشيوخ، سلي القوي، سلي الضعيف؛ آتيني بواحدٍ منهم لم يذق مرارةَ الحياة !

آتيني بواحدٍ منهم دامت له اللذةُ، أو بقيت له ساعةُ المتعةِ !

كـأن رب السـماء نـادى علـى الـدنيا يـوم خلقهـا فقـال لهـا : يـا دنيـا مُـري للإنسان، ولا تحلولي له أبدًا !

***

قالت ـ وكأنها تسأل هذا السؤال لأول مرة ـ :

ـ أبي، إلى متى أجرع هذا الدواء المُر ؟

قلتُ :

ـ إلى أن تعيشَ الطيرُ الضعيفة آمنةٌ في وُكُنَاتِها ..

إلـى أن يخـرج البطـل الشـريف مـن سـجنه، إلـى أن يُفك عـن الُحـر الكـريم قيـده.. إلـى أن يبـرد قلـب الأم الثكلـى، إلـى أن تَسـعد نفسُ اليتـيمِ المكلـومِ والفقير المحروم، إلى أن يعود الحقُ والشرفُ المسلوبِ .

حينما تُدحر الكواسر، وتخرج الفوارس .

حينما يغيب الظلم، ويعود العدل .

حينما يموت الحقد، ويحيا الحب .

يا طفلتي، مرارة الدنيا تكون على قدر خطايا أهلها، ومرارة الدنيا تكون على الظالم عقاباً، وتكون للأبرياء ـ مِثلك ـ ثوابًا .

***

قالت ولا زالت تقول :

ـ أبي، يا أبي !! إلى متى أجرع هذا الدواء المُر ؟

قلتُ :

ـ إنْ توقفتْ مرارة الدنيا؛ فما حاجتنا للجنة إذنْ ؟

يا قرة عيني، أحمقٌ هذا الذي ظن أن السعادة في ساعة يقضيها بين كأس وغانية، لو يعلم الجسدُ أن كل ساعةِ لذةٍ لها ما يقابلها من ساعة ألم، صرْفَ الدرهم بالدرهم ! !

كأن الدنيا ـ يا بنيتي ـ تُذيقه من الألم قدر ما ذاق منها من نِعم، فتقاسمه الدولار بالدولار، والساعة بالساعة، والنعل بالنعل، والثوب بالثوب؛ دولار ينفقه في لذة، ودولار ينفقه في ألم .. ساعةٌ يقضيها في نعمة، وساعة يقضيها في نقمة .. خطوةٌ يمشيها في متعة وخطوة، يمشيها في حُرقة .. ثوبٌ يخلعه ليضاجع حسناء، وثوبٌ يخلعه ليُعَالجَ من داء !

***

قالت ولم تتعب :

ـ يا أبي، إلى متى أَجْرَع هذا الدواء المُر ؟

قلتُ :

هكذا الدنيا يا نور عيني، نبحث عن حلاوتها ولا نبالي بما وراء هذه الحلاوة من هلكة وشقاء، ونصرف وجوهنا عن مرارتها ولا نفكر في ما وراء هذه المرارة من منعة وشفاء .

ذلك أن النفس تشتهي ما يُمتعها متعةَ الساعةِ فحسب؛ كمن أسرف في أكْلِ السكر حتى أصابه داءُ السكري، وكمن أتخم بطنه بأطايب اللُّحمان حتى

أصابه مرضُ النِّقْرِس ، وكمن أدمن الخمر حتى رَنَّحَته، وأصابته بعلةٍ في كبده.

وهكذا نال قسطه من السكر وهو حلو، ومن اللحم وهو حلو، ومن الخمر وهو حلو . ثم نال القسط المقابل ـ فكلُ شيء بثمن ـ فذاق مرارة داء السكري، ومرارة النقرس، ومرارة الكبد !

نعرف هذا جيدًا ـ يا طفلتي ـ لكننا لا نتقيه لأننا ننسى العِبر، ولأننا في سَكْرة عامهين ..

ومَثَلُ الدنيا كمثل الخمر؛ تزيدنا سُكْراً على سُكْرٍ، كي تزيدنا مرارةً على مرارة !

أفهمتي ؟

***

ترددت في طرح السؤال مرة أخرى ..

تلجلجت وأُحصرت ..

حاولت، ثم سكتت، ثم حاولت محاولة ضعيفة، ثم ... ثم ارتسمت على مُحياها رسمة الرِّضَا..

***

تمت

الأبواق الكاذبة[1]

ترى في تقاسيم وجهه الأبيض؛ صفحات مطوية على أمجاد منسية.. شواطىءُ تركيا الطويلة، وغدرانها المُترَعة، وأنهارها الرقراقة، وقيعانها ورياضها المُونِقة؛ كلها كلها؛ تبرقُ في لمعة عينيه الحازمتين .

خطواته الواثقة، وهو يتقدم نحو منصة المؤتمر، تضاهي عراقة مسجد أيا صوفيا .

رشاقته الفائقة، تحْلفُ أنه ابن عشرين سنة وليس ابن خمس وخمسين !

... بطمَأنينة وهدوء جلس هذا الرجل الطيب.

لا يبالي أن أجلسوه إلى جوار عدوه؛ ذلك الحاخام الكَهْل، الذي تَقَوَّسَ ظَهْرُهْ تقوسًا مُنكَرًا؛ كأنما طُعن في عموده الفقري بسَهْم الموت النافِذ؛ الذي أحنى جبينه المتقطب؛ الذي تفوح من بين تجاعيده تعاليمُ رجال الدين، ونصوصُ التلمود، وتوصياتُ حكماء صهيون .

---

[1] من وحي موقف "رجب طيب أردوغان" عندما انسحب من مؤتمر دافوس، يوم ٢٩ يناير ٢٠٠٩؛ تضامنًا مع غزة، واحتجاجًا على عدم إعطائه الوقت الكافي للرد على الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز، بعد أن دافع الرئيس الإسرائيلي عن حق إسرائيل في الحرب على غزة ...

نظر إلى الحاخام نظرةً عابرةً، فتولدت منها نظرات أخرى، يبدو أنها تولدت من معانٍ غريبة، وصورٍ بشعة، وجراحٍ غائرة، و ... تاريخ أسود!

و .. ردًا على نظرة الرجل الطيب :

نظر إليه الحاخامُ بعينيه الغائرتين نظرةً ملوثة بأحقاد قديمة، ثم هز له صلعته التي بَرَقت وومضت، هزةَ سخرية، وقد انعكس منها ضوء القاعة .. إضاءةً ذكَّرتْ الرجل الطيب بضوء قنابل الفسفور الأبيض المحرمة دوليًا !

***

قال الحاخام الصهيوني مخاطبًا الجمهور :

ـ وطنُنا فوق كل الأوطان، من النيل إلى الفرات، من بيروت إلى خيبر، لقد ظُلمنا كثيرًا عبر التاريخ، لقد شُردنا كثيرًا بين البقاع والأصقاع، في التِّيه، واللعن، والتشريد، والهجران، من مذابح نبوخذنصر إلى محارق هتلر، ومن حقنا أن نذبح العرب فداءً لوطننا، من حقنا أن نقتل الأطفال، أن نأسر النساء، أن نحرق الشيوخ، أن نحطم المعابد، وليس علينا في العرب سبيل ! لقد سامونا الخسف، لقد أرَّقوا علينا المضجع، لقد قتلونا، لقد ذبحونا، لقد ظلمونا، لقد أراقوا دُموعَنا السخينة، ودمروا عرائس بناتنا البريئة .. أيها العالم المتحضر ! أيها الناس أجمعون ! تضامنوا معنا، ادعمونا، انصرونا، قلوبكم مع قلوبنا، يدكم في يدنا؛ حتى نطهر العالم من

الظلم ! ولتنعمي يا أرض بالأمن والأمان، والحب الإحسان، والسلام والإيمان، والوِئام و(....)ـان ...، ...، ... !

***

ينظر إلي الحاخام، والحاخام يتكلم، تخرج منه هذه الكلمات؛ فتفرقع في قاعة المؤتمر فرقعةً أشبه بفرقعة الجعلان إذا سافد الخنفساء، أوفرقعة حَبِ الكُحْلِ عندما يُطرح على النار، وتَعْلو فرقعاتها وتعلو وتعلو مع هذه السجعات التي هي أفحش من سجع الكهان ... كهان، كهان، كهان، آن، آن، آن !

لكنها كانت كالمطارق الحديدية على رأس الرجل الطيب.

كانت تهزه هز المس الكهربائي إذا تمكن من إنسان .

وتَحوَلَ رياشُ المقعد اللين من تحته إلى أشواك لاهبة لاذعة .

ضاقت به نفسه، وضاقت به القاعة الرحيبة.

وقف وكأنما لسعه عقرب في مقعدته؛ يقول ـ وقد ملئته غضبة ـ موجهًا كلامه لمدير الجلسة، طالبًا منه حق الرد على هذا الشيخ :

ـ دقيقة واحدة !

تردد مدير الجلسة، فبدت عليه علائم التضامن والتأييد لكلام الحاخام، وأخذ ينطق بكلام مرتجل يوّكّد به كلام الحاخام؛ كما يعوي الفصيل في آثار الإبل.

فعاود الرجل الطيب طلبه :

ـ دقيقة واحدة ! دقيقة واحدة !

اصفر وجه مديرِ الجلسة؛ فبدت مخايل صهيونيته من وراء صفرة وجهه، وسكت قليلاً، ولم يأذن بعدُ للرجل الطيب بالكلام .

فكسر الرجل الطيبُ سكوتَ مدير الجلسة، وأكثر عليه، وشدد في سؤْله:

ـ دقيقة واحدة ! دقيقة واحدة ! دقيقة واحدة !

***

رضخ مدير الجلسة؛ فأذن للرجل الطيب بالكلام !

طاب مقعده إذن، فجلس، وتَوَرَّكَ[1]، وتناول المذياع، و فورًا ... أُطفِئت الأنوار، وقُطعت الكهرباء؛ لتظل الحقيقة غائبة عن مسامع الأغبياء، وليبقى الصوتُ الأعلى صوتُ سجعات الكهان !

فالأبواق الكاذبة لا تصدع بالصدق !

***

تمت

[1] وضعَ رِجلاً على رِجل

ورم خبيث [1]

تحسبه شيخًا مُسنًا وهو ابن الأربعين..

يأوى إلى فراشه، بعد يوم طويل من الكد والفقر والمرض .

يتقلب على فراشه كما يتقلب العصفورُ فوق الزيت المغلي .

فراشٌ؛ يكابد فيه أنات مرضه، وآهات ديونه، ورنات جيوبه الخاوية .

ولقد فُصل من عمله بإحدى الشركات الخاصة والعلة المباشرة تأخره عن مواعيد الحضور، أما العلة غير المباشرة أو العلة الحقيقية غير المعلنة هي أصابته بمرض السرطان .

يشعر شعورًا مُلِحًا، واستعدادًا قويًا أن يفتدى نفسه من مرضه بكل ما يملك !

فيضحك ضحكة ترن في غرفته تهز عشش العنكبوت المتراكبة في كِسر بيته، ويقول :

ـ أنا لا أملك شيئًا سوى نفسي، ومن ثم يمكنني أن أُضحي بها لإنقاذها ! يعني أقتلها ليموت المرض !

---

[1] كتبتُها في شهر فبراير ٢٠٠٩، متأثرًا بمأساة الروائي المرحوم يوسف أبو ريا الذي تُوفي عن ٥٣ عامًا، بعد صراع مع مرض سرطان الكبد، وقد تضامن معه الكتاب والمثقفون من أجل أن يُعالج على نفقة الدولة، ولكن دون جدوى... له سبع مجموعات قصصية، أهمها : " الضحى العالمي " و " طلل النار " و " شتاء العري " و " عكس الريح " و " ترنيمة الدار "، وله ست روايات، منها : " صمت الطواحين " و" عطش الصبار ".

ويضـــحك، ويضـــحك، ويضـــحك؛ ضـــحكاتٌ أشـــبه بالعويـــل المغلـــف بابتسـمةكاذبة، مثـل الجـرح الغـائر المسـتتر وارء لاصـق طبـي يحسـبه الجاهلُ قطعةً من جلد الإنسان، فالظاهر الجلد، والباطن الجرح العميق .

***

ـ " سرطان البنكرياس، أخبث أنواع الأورام . الورم في مرحلة خطرة . لا تفكر في الاستئصال الجراحي . الجرعات الكيماوية غير مجدية، استعن بالله يا أخي " .

كانت كلمات الطبيب ترن في أذنيه، وتهز أعصابه، وتحرك قلبه يمينًا وشمالاً !

أخذْته تنهيدةٌ حارة، ونفخةٌ مَضْبوحة باللهب؛ كأنما خرجت من تَنُّورٍ، وتحركت أقدامه بعيدًا عن الطبيب؛ وكأنما كانت تعمل الأقدامُ كوحْدةٍ مستقلةٍ عن جسده وحسه وعقله؛ فقد كان عقله مشدوهًا، وحسه غائبًا ، وجسده منشغلاً بورمه .

خرج إلى الشارع الرئيسي الذي كان مقر العيادة على ناصيته؛ لم يهتم كثيرًا إلى أي اتجاه يسير، ولكن ظل يمشي ويمشي، ولم يعد يعبأ بالخطوات أو الوقت أو الشوراع .

لم يهتم أدنى اهتمامٍ بذلك الاتوبيس المزدحم، المحشور بالركاب، المترع باللحوم البشرية، ذلك الذي يحمله إلى الحي الذي يقطن فيه . وقال ساخرًا من نفسه أو من الأتوبيس :

ـ لعل هذا هو سبب الورم !

***

لا زالت رجلاه تسوقه، وقد وجد نفسه فوق كبري قصر النيل، أمام تمثال كبير لأسد من غير شوراب .

نظر طويلاً إلى تمثال الأسد ـ الذي نسي المثَّالون صناعة شاربه ـ، ثم تحولت نظراته إلى سهام حقد وحَنَق .

وشعورٌ بالضَّوَى النفسي، والجَوَى المعنوي؛ يغليان في أحشائه، كما يغلي الماء في المرجل .. قال ساخرًا :

ـ لماذا نُقدس الحيوانات ونصنع لها التماثيل، ولم نحترم بعدُ إنسانية الإنسان ؟ يا وَيْلَتَي، ليتني كنتُ أسدًا أو فهدًا أو قطة أو كلبًا ! يا حسرةً أكلتْ قلبي، و فجعةً طعنتْ كبدي، يا شبابي الطائع، وياعمري القصير !!

ثم قال ساخرًا من نفسه أو من التمثال :

ـ لعل هذا هو سبب الورم !

***

أخذ يَبْزُق بَزْقاً شنيعًا ومجنونًا في وجه التمثال...

ـ أفٌ وتف !

ينفخ أوداجه، ويجمع ريقه في فمه، ويتفل ويتفل !

ينظـر المـارون إلـى ذلـك الرجـل الـذي وقـف يبصـق فـي وجـه التمثـال، ينظرون إليه من طرفٍ خفي، ولا يتكلمون، ولم يجد منهم من يسأله عن سر جرحه، وسبب غضبه؛ فضلاً عن يدٍ حانية تتحرك نحو كتفه تخفف عنه بعض ألمه . لم يجد ذلك أو شيئًا من ذلك، فالشعور العام : سلبية عارمة، والمشهد العام : أغلبية صامتة !

***

تجاوز التمثال، وتقدم في خطوات نحو وسط الكُبري. نظر من أعلى نحو النهر؛ الذي بدا عليه الترهل والاصفرار، يشعر ببطىء حركته؛ التي يظهر فيها حزن النهر جليًا طافيًا، ولكأنما أصيب هو الآخر بالمرض اللعين.

فكر أن يُلقي بنفسه فيه منتحرًا، ليسترح جسمه، لكنه استغرق في التفكير فتبين له أنه بهذه الخطوة يفقد الروح والجسم معًا، وهو الآن يُعاني من مرض الجسم فقط، بيد أن الروح طاهرة سليمة لم تلوثها الحياة، ولم تُدنس بدنس الشر الذي هو أخبيث من المرض الخبيث. ففضّل أن يُبقي على نفسه: يكابد جسمها، ويسعد بروحها .

ولكنه عاد يقول بصوت مرتفع :

ـ لكن الموت أرحم من انتظار الموت !

***

لكنه مضى .. ومشى ومشى ..

وجد نفسه أمام دار للسينما . نظر إلى الصور الضخمة التي تعلو الدار. هؤلاء مهرجون أم فنانون ؟ بالطبع منهم الفنانون وأكثرهم المهرجون، ذلكم الذين يقتاتون على جراح الناس وآلام البشر . وقف أمام نافذة التذاكر، أَدخل يدهُ في جيبه، أخرج ورقة مالية، لم ينظر إليها، دفعها إلى المحصل واستلم منه تذكرة دخول، وأخذ باقي المدفوع، ولم ينظر إليه أيضًا . وصل إلى قاعة العرض؛ حتى إذا بدأ الفيلم؛ قام وانصرف. فلم يعد يهتم بأفلام الحياة إلى أين تنتهي أحداثُها مادام أبطالهُا أشخاصٌ وهميون أو راقصون أو متزلفون .

مزقها ثم نفخها في الهواء ..

هكذا كان صنيعه بتذكرة السينما !

فهو يعتقد أن الحياة باتت قصة قصيرة مخجلة؛ تساقط أبطالُها الحقيقيون، خوا مسرحُ الحياة لأشخاص يأكلون لحوم الناس، ويأكلونها رغمًا عن الناس أو رغبة منهم؛ والدليل : هذه التذكرة .

ثم قال بصوت مسموع :

ـ هذه التذكرة التي تعني أنني أدفع المال لتضحكوا علي !

ثم قال ساخرًا من نفسه أو من السينما :

ـ لعل هذه هي سبب الورم !

***

ـ سَئِمْتُ تَكالِيفَ الحَياةِ ومَنْ يَعِشْ ... ثَمانِينَ حَوْلاً لا أَبالَكَ يَسْأَمِ[1]

يردد هذا البيت مرارًا..

ينطبق عليه تمامًا ..

هو في سن الأربعين بالمقاييس المعتادة عند البشر، لكن كل سنة من عمره تعدل سنتين على أساس حجم المآسي التي عايشها، يردد البيت ويتجاوز الشارع إلى المقهى المقابل للسينما.

جلس إلى المقهى وحوّل وجهه عن الحانات الرخيصة المنثورة في نفس الشارع .

تذكر أن هذا المقهى هو مكانه المعتاد، وقد ساقته قدمه إليه دون إرادة حقيقية منه، فقال :

ـ عجبًا !

وقال في نفسه، يا ترى، هل هذه هي آخر جلسة لهذا المقهى ؟ ولطالمًا جلسنا مع أدباء القاهرة في أماسي رائقة؛ ترقرقت فيها النفوسُ، وطربت فيها القلوبُ؛ بالقصيدة الماتعة، والقصة الساخرة، والطرفة المرتجلة، والنكتة الأدبية، بل الخلاف والسجال والنقاش والمخانقات ..

***

[1] البيت لزهير بن أبي سُلمى ـ من الطويل ـ من معلقته الميمية الشهيرة، التي يقول في أولها :
أمن أُمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تكلَّم ... بحوْمانة الدّرّاج فالمتثلّم.

نظر إلى شاشة التلفاز في المقهى، وكانت الانتخابات الإسرائيلية(فبراير ٢٠٠٩) هي حديث الساعة.

قال المذيع :

ـ " بإمكان تسيبي ليفني أن تفرح، فقد حققت نجاحا كبيرًا، إلا أنه لن يكون كافيًا لجعلها رئيسة وزراء .. لقد حققت ليفني نصرًا كبيرًا أول من أمس. وهزمت بنيامين نتنياهو من حزب الليكود الذي كان يتصدر استطلاعات الرأي حتى اللحظات الأخيرة..."

***

شعر بالدُّوار، وأحس أنه وسط بَرِّيّةٍ لا يجد فيها مُعيناً يسند إليه ظهْره إلا هذا الكرسي أو بقايا الكرسي الذي يتأبطه.

... ثم قال ساخرًا من نفسه أو من المذيع :

ـ لعل هذا الإعلام هو سبب الورم !

***

انتظر كثيرًا، ولم يحضر الأدباء، نظر في الساعة كانت الخامسة عصرًا، قال : ـ أُفٍّ ! الأدباء موعدهم في التاسعة مساءً؛ سأنتظرهم.

أحس بشيء من الأمان؛ فالأدباء قادمون، فتهللت أساريره، وتبلج وجهه بقوة، وكأنما طلع فيه الصبح طلعةً أبهجت المقهى المتهالك .

نادى :

ـ واحد شاي يا ولد !

ـ الشطرنج يا ولد !

ـ كم الساعة يا ولد !

***

اجتمع الأدباء من حوله، ضحكوا وأضحكوه، فرحوا وأفرحوه، دارت القصائد والقصص والطرف .. فمرة دمعة ومرة ضحكة ..ثم قالوا بصوت واحد له :

ـ يا يوسف لا تبأس ! يا عم لا تحزن ! أنت الأقوى وهم التعساء!!!

***

تمت

مُلاحاة العظماء

ابـن المقفـع، المتنبـي، وجـان جـاك روسـو، وفيكتـور هوجـو، وفـولتير، وفيودور دستويفسكي، والمنفلوطي والعقاد .

على اختلاف مشاربهم وأزمانهم وأماكنهم؛ هكذا اجتمعوا في معراج من مَعَارِيجُ[1] السماء، على أريكة ابن المقفع؛ وقد أكرمهم وهش لهم وبش. .

يلتقون في أمسية أسْبُوعِيّة ، كما كانوا يصنعون في الدنيا، جلسوا كما كانوا يجلسون في صالوناتهم الفكرية، وهكذا حضروا؛ وغاب عنهم من غاب .

فيبدو أن الجاحظ، والمعري، وشكسبير، ولامارتين، وجوستاف فلوبير، وجبران، والزيات، وغيرهم .. غابوا عن جلسة الليلة لظروف روحية، ولا أقول ظروف صحية؛ فقد ذهبت الأجساد بأمراضها في الدنيا الفانية.

***

التوتر يخيمُ على الجلسة، ابن المقفع يضرب سبابتُه في بطن كفه اليسرى ـ قلِقًا ـ.. فولتير يحولّ خاتمه من خنصره اليسرى إلى بنصره اليمنى ثم يعيد الخاتم كما كان في حركة مضحكة .. العقاد في صمته،

---

[1] ويصح مَعَارِج، قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحد مِعْرَجٌ و مَعْرَجٌ بكسر الميم وفتحها كما تقول مِرقاة ومَرقاة، والمَعَارِجُ أيضا المصاعد [انظر : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي: مختار الصحاح ٤٦٧، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، تحقيق محمود خاطر]

هوجو في سكون هيبته، المنفلوطي ـ كعادته في الدار الفانية ـ يزم شفتيه فتبدو في خده الأيمن فحصةٌ جميلة؛ فيَشعرُ الحاضرون أنه يريد أن يتكلم؛ فيسكته حياؤه.

صاح جان جان روسو :

ـ إلى متى سنتظرهم ؟ موضوع الليلة مهمٌ ! الأمسية لابد أن تبدأ ! ينبغي تربية هؤلاء الأدباء من جديد، قلتُ لكم في الدنيا كثيرًا : المجتمع يُفسد الأفراد، ولم تصدقوني!

قال المتنبي : هون عليك يا أبا " إيميل "! خَفِّض عليك يَرحمك الله، فإن هذا يَهيضك[1] على ما بك !

ولكنْ في هدوء وسكينة قال فيكتور هوجو :

ـ لماذا نجلس هكذا كالبؤساء ؟ هلا بَدَأْنَا الأمسية ؟

***

قال ابن المقفع ـ صاحب الأريكة ـ وقد أخذته نفحة من نفحات الصداقة:

ـ فلنشرع يا أحباب في الأمسية، فالوقت أَزِفَ ؛ ولعل من تأخر من إخواننا الأدباء قد حبسه عذرٌ، وحُسن الظن من شيم الإخوَانِ ، وإنْ ضَيَّعَ إخواني موعدي؛ فإنني حفيظ لموعدهم؛ ولن ننال الكرم إلا ببذل، ولن ننال المجد إلا بصبر .

ثم نظر ابن المقفع إلى هوجو؛ نظرة إجلال وتبجيل، وقال :

---

[1] أَي : يؤذيك ويَنْكُسُكَ إِلَى مَرَضِكَ وهو مَجازٌ

ـ ومن ثم فليبدأ شيخنا " فيكتور هوجو " بإدارة الأمسية .

همس فولتير في أذن المنفلوطي ضاحكًا وقال:

ـ يقول " شيخنا " فقد مات صاحب " البؤساء " عن ثلاث ثمانين سنة !

فتطأطأ له المنفلوطي برأسه؛ أن نعم نعم، ثم قال فولتير :

ـ بالمناسبة ! أشكرك على مقالتك التي أبَّنّتني بها في كتابك النظرات!

فرد المنفلوطي هامسًا :

ـ هذا أقل واجب يا نصير العقل والحرية على ما بك من إلحاد!

تحمحم هوجو ثم قال في حزم يخالطه ود :

ـ أمَا وقد بدأنا الأمسية؛ فامنعوا الأحاديث الجانبية ! أفهمت يا فولتير ! أفهمت يا منفلوطي !

ثم ضحك ـ أضحك الله سنه ـ، وعلى الفور عاد إلى توازنه؛ الذي يجمع فيه بين سمات شخصية "جان فالجان" الصابرة الصامدة العاقلة، وسمات الطفلة "كوزيت" البريئة الطاهرة النقية ـ في رواية البؤساء.

قال :

ـ ياجماعة الخير؛ أود ـ ونحن في صدر أمسيتنا ـ أن أشكر الكاتب الحكيم عبد الله بن المقفع؛ على حسن استقباله، وكرم ضيافته، وطيب أريكته .. وأقول : إن أبا عمرو[1] عَلَمٌ لطلاب البلاغة .. والفصحاء عيال على صاحب كليلة ودمنة، وإن قال قائل إن ابن المقفع قد ترجمه عن الفارسية،

[1] كنية عبد الله بن المقفع

فأقول : كم من عمل أدبي عظيم أفسدته الترجمات وشوهة صورته سوء الاختصارات، ومغالاة التحليلات . فابن المقفع زادَ تعاليم الفيلسوف بيدبا نورًا فوق نور، وبلاغة فوق بلاغة، وعظمة فوق عظمة.

***

قال فيكتور هوجو :

ـ ... ونحن يا جماعة الفضل، ونحن في دار الحق، قد ساءنا ما وصلت إليه حال الإنسانية في الدار العاجلة، وما اتصل بها من الانحطاط والبغي وفساد الذمم، ولعمري كم من الليالي أمضيها باكيًا كلما جاءني نبأ من أنباء العار في هذه الدار الفانية التي أراحنا الله من صروفها وعصوفها.. انظروا إلى أخلاق البشر وما صارت إليه، تأملوا حال البؤس والشقاء الذي يرزح تحته ملايين الضعفاء .. ترى قوانين الأرض تعاقب من سرق رغيف خبز وتحاكمه محاكمة قاسية، وتترك السراق الكبار ـ الذي يسرقون أممًا بأكملها ـ يرتعون ويتمرغون في القصور العاجية . ومن ثم أوجه سؤالي إلى حضراتكم ما هو دورنا في نصرة البؤساء ؟ ما الذي قدّمناه لإنصاف المظلوم من الظالم، وخلاص المحق من المبطل، ونصرة الضعيف على القوي، وإقامة قوانين العدل في هذه الدار الخادعة ـ التي نجانا الله منها ـ ؟

***

تنهد المتنبي، تنهيدةً، وقال :

ـ وا حر قلباه ممن قلبهُ شَبِمُ[1] !

قال المنفلوطي :

ـ إنَّ تأوهاتنا وعَبراتنا لن تجدي يا رفاق ! ولماذا نلقي باللائمة على الدنيا، ومنا من ساهم وشارك في إفساد الناس وباع أدبه وأخلاقه ومبادِئه بعَرَضٍ من الدنيا ...

قاطعه فيودور دستويفسكي قائلاً :

ـ لا تتعبوا أنفسكم؛ فلن تفلح أطروحاتكم فضلاً عن محاولاتكم إن كان ثمة محاولات ...

نظر إليه روسو بشراسة وقال:

ـ هكذا أنت دائمًا يائسٌ ومحبطٌ وتريد أن تنشر اليأس والإحباط في كل طبقات الجو ! أيها الصرصار المقامر الأبله ـ كف عن هذا الغراء!

***

... قال ابن المقفع :

ـ أنا لا أقبل أن يُهان ضيفي وكلكم ضيفاني !

قال فولتير : ولكني لا أري أن روسو وقع في خطإ ! دستويفسكي بالفعل صرصار ومقامر وأبله !

---

[1] من قصيدته الميمية المعروفة التي أنشدها في آخر مجلس جلسه إلى سيف الدولة :
وا حر قلباه ممن قلبهُ شبمُ ... ومن بجسمي وحالي عندهُ سقمُ

انفجر المجلس بالضحك .

استأنفوا الموضوع، ثم خرجوا منه مرة أخرى، ثم علت حناجرهم بالضحك أشد من الأولى .. حينئذ دخل عليهم رجلان، الأول: معتدل الطول، ناضر العود، وسيم قسيم، والثاني: شيخ كفيف، طويل أنيق، تبدو على سحنته ملامح الطرافة والظرف.

وهنا خرج العقاد عن صمته، فقال مُستهزئًا :

ـ مرحبًا بالأصم المهزار[1]، والأعمى المكثار[2] !

***

قال ابن المقفع :

ـ يا أخي يكفيك بعض استهزائك؛ لطالمًا أكثرت من شتمهمها في الدار الفانية، وقد عاب عليك ذلك روادُ صالونك !

قال المنفلوطي وقد خرج عن حيائه المعهود وانتفض غاضبًا للعقاد:

ـ ولكن السيد المحترم مصطفى صادق الرافعي ـ أديب القرآن ـ خرج عن أدب القرآن عندما أنشأ كتابه " على السفود " وأفرغ فيه سيلاً هائلاً من الطعن والقذف، واندفع نحو التجريح المقذع في شخص العقاد، وفوق كل هذا لم يبلغ الرافعي مستوى الشجاعة الأدبية؛ إذ نشر الكتاب ولم يكتب عليه اسمه واكتفى بكتابةِ جملةٍ تقول " تأليف إمام من أئمة الأدب" . أما

---

[1] يقصد به مصطفى صادق الرافعي

[2] يقصد به طه حسين

الشيخ طه حسين ـ عميد الأدب العربي ـ فقد خرج عن الأدب، وزاغ عن عمادته عندما استخف بالعقاد في أكثر من موقف؛ منها التي جمع فيها الأدباءَ بعد وفاةِ أمير الشعراء أحمد شوقي؛ وأراد طه أن يَعقد بيعة جديدة لأمير جديد؛ فاختار العقادَ ليكون خليفةً لشوقي؛ وما صنع طه هذا إلا استخفافًا بالعقاد؛ وقد كانت مادة ثرية للتندر والضحك والسخرية على مدار سنوات على صفحات الصحف . وكان طه ـ سامحه الله ـ هو السبب.

***

بدت هذه الكلمات قد أفحمت الحضور، فعم الصمت، ثم قطعه هوجو بقوله :

ـ لا تعنينا كثيرًا سخافاتكم هذه يا أدباء الشرق، ولا يهمنا سوء أخلاقكم في حق أنفسكم، وقد بلغني ما كانت تصنعه بكم الآنسة مي زيادة؛ كلٌ يدعي لنفسه أنه آسر قلبها وحبيب وجدانها .. وهي تلعب بكم لعب الطفل بالدمى.

قال المتنبي :

ـ لا تَخْدَعَنِّي بالمُنَى باطِلاً ... وأنت بي تَلعَبُ كالعَابِث

ثم استدرك قائلاً :

ـ البيت ليس لي إنما هو لعمر بن أبي ربيعة .

قال ابن المقفع ينصح المتنبي :

ـ يا أبا الطيب ! خليقٌ بك ـ وأنت شاعر الطُموح ـ أن تلعب في شعر نفسك لا في شعر الناس .. وما حاجتك إلى هذا الشعر ؟

قال فولتير : وماذا يا ترى كانت تصنع هذه الآنسة بأدباء الشرق ؟
فاحمر وجه الرافعي، واضطرب طه، وعض العقاد على يديه .. وخرجت منهم أصواتُ حمحمة الحياء، وبدت عليهم علائم الحرج، وقد اخضلت وجوههم أن زاع بين الأمم خبرهم مع الآنسة مي!

***

قال طه ضاحكًا :
ـ وَيْ منها ! أضحكتْ علينا الأمم !
فما أنْ أتم طه هذه الجملة حتى لكزه العقادُ في جنبه، وهو يقول :
ـ اسكت أيها الأعمى فضحتنا !
فقال الرافعي يسخر من العقاد :
ـ أتذكر يا إمام الأدب ما قلته أنت لها بشأني ؟ ألم تقل لها : ما يعجبك في هذا الفلاح الأصم الذي يعمل موظفًا بمحكمة طنطا الابتدائية، ذلك المتشدد الذي يقتحم علينا صالوننا اقتحام الذئب على الشاة؟ فلمْ تزل بها حتى غيرتْ من موعد الصالون على مضض، ومع ذلك رفضت أن تنصاع لمطلبك ولم تطردني من الصالون .. وذلك لسبب وحيد .. أنها أحبتني من دونكم ؟
قال العقاد وقد اعتور صوته :

ـ كذبٌ محض لها قرنان ! بل كانت تحبني أنا !

فقال طه في ثقة بدت على حركة رجله التي وضعها فوق الأخرى:

ـ كذبتما، بل كانت تعشقني أنا من دون الرجال كلهم !!

واشتد التلاسن بين الرافعي والعقاد وطه، وكلٌ يدعي صحة العقل، وكلٌ يدعي الزلفى للآنسة مي !

فقال المنفلوطي :

ـ كذبتم جميعًا ! بل كانت تحب جبران، والدليل رسائلها إليه ..

فضحك الثلاثة؛ الرافعي والعقاد وطه، وقالوا بلسان واحد:

ـ لقد كتبتْ إلينا جميعًا !

قال فولتير : أهكذا فعلتِ بكم هذه المجنونة !

***

ثم نظر هوجو إلى ابن المقفع ـ مبديًا استغرابه ـ وقال :

ـ لقد خَلَفَكُم قومٌ أضاعوا الأدب، واتبعوا الحسناوات ..

فضحك الجميع !

قال روسو :

ـ أفسدتم علينا الأمسية، كلما شرعنا في موضوع خرجنا منه !

قال هوجو :

ـ دعنا يا رجل نضحك على الشرق[1] !

***

تمت

[1] أبو العلاء المعري (ت 449 هـ)؛ هو رائد هذا النوع من الأدب، وهو ما يسميه البعض بالكوميديا الإلهية، ويرى البعض أن الشاعر الإيطالي" دانتي أليغييري " قد (أخذ) ملحمته الشعرية المعروفة من رسالة الغفران للمعري، ومن قصة الإسراء والمعراج للنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

المعونات

الدجاجة سقطت من فوق المنزل . أطفال البيت احتوشوها . الأطفال يبكون؛ لقد انقطع الدعم اليومي .

قال طفلٌ منهم باكيًا :

ـ لا بيض بعد اليوم !

قال آخر :

ـ تبًا لهذا السطح الشاهق !

قال ثالث :

ـ بل تبًا لهذه الأرض الصخرية !

قال رابع :

ـ بل تبًا لهذه الدجاجة الشقية، الخارجة عن الأدب.

***

كثر السب واللعن، تنابذوا، تعاركوا، تفرقوا؛ كلٌ يتحسر على الدجاجة، يتأسفون على البيض المكسور، تدور أعينهم، فكّروا في دجاجة جديدة، أين هي، في الشرق دجاجة أخرى؛ لكنها تنتج لبيت الجيران، نرفض التسول، تبًا ! تبًا ! هناك دجاجة أخرى في الشمال؛ لكنها تبيض لجار خبيث، أف ! أنمد أيدينا لعدونا البغيض !

***

داروا يبحثون عن دجاجة أخرى، ولكن دون جدوى، يجتمعون آخر النهار حول جثة الدجاجة الميتة، يبكون، يندبون، يحملون جيفتها إلى مثواها الأخير.

قال أصغرهم :

ـ يا لهفي ! من لنا بعدك أيتها الدجاجة الكريمة !

قال أكبرهم :

ـ سسنبكيك دمًا وألمًا ! فوا حسرتا ما أمَرّ الفراق !!

قال شاعرهم ـ وقد جادت قريحته ـ:

نبكيك دوما أيا (دجاجة) ما برحتْ

ذكراك يَعبق في الآفاقِ ذاكيها[1]

***

قال أوسطهم :

ـ كفوا عن هذا الهُرَاءِ ! لا تنتظروا المعونة من أحد ! كونوا صامدين شرفاء أو كونوا قِرَدَةً خاسئين !

***

تمت

[1] البيت مقتبس من قصيدة للشاعر اللبناني أمين تقي الدين [١٨٨٤ ـ ١٩٣٧ م]، وهي بعنوان : أيكون قلبي من هواك طليقا

قَوْمٌ مُنكَرُونَ

فتح التلفاز، أضاءت شاشته على شِلْوٍ مُمزَّعٍ، وبيت مُهدّم...

فقال فورًا :

ـ هذه غزة !

***

ثم حول مؤشر التلفاز إلى قناة أخرى؛ فانفرجت الشاشة على صورة امرأة عجوز ترتدي الاسدال الأسود تبكي، تُوَلْوِل، تلطم، تقول : ولدي ! ولدي ! فقال :

ـ بالطبع هذه بلاد الرافدين !

***

لا زال يتنقل بين قنوات التلفاز . مرت حركة المؤشر سريعًا على رجل يقرأ من كتاب :

ـ وقفتُ على قبرها . ثم تذكرتُ يوم تخطفها المرض، ثم تذكرت يوم تلقّمها الموت، يوم لفظتها الحياة .. وطردتها طردًا، وهي البنت البرئية، رغم أنهالم تسء للمرض ولا للموت ولا للحياة !

فقال :

ـ هذا أديب، لله دره !

***

انتقل إلى قناة الفوزاير، وكانت المذيعة تقول للأطفال :

ـ يُستخرج من أطيب الأشجار، ثم يُصنع ويُلف في أرقى اللفائف، ثم يُعبىء في أفخم العلب، ثم ينتشر أعوادًا في الأفوه؛ وتمصه الشفاه عدة مصات، ثم يُسحق بالأقدام .. فما هو يا تُرى ؟

فقالت الأطفال في صوت واحد :

ـ السيجارة، السيجارة

ضحك وقال :

ـ أطفال برءاء

***

توقف المؤشر على قناة ثقافية أو اجتماعية ، وكان ضيف البرنامج يقول للمذيع:

ـ نحن نحترم التخصص؛ نحن نبحث عن حالاتٍ أُنتهكت فيها حقوق الحيوان: قط جائع، كلب غائب، فأر مكلوم، خروف مذبوح، قرد مخدوش، فيل مضروب...

تبسم ابتسامة صفراء، وقال :

ـ هؤلاء قومٌ طيبون حالمون !

***

حوّل المؤشر إلى قناة غامضة؛ فكانت الصورة مسلطة على شباب يرقصون رقصات جنونية، ويتحركون بحركات عجيبة مثيرة، وفتيات شبه عاريات أشبه بعاهرات، وأصوات موسيقى صاخبة مزعجة؛ ترفع ضغط الدم المرتفع، وتُزيد من نسبة السكر في الدم ...

فقال في غضب :

ـ مَنْ هؤلاء القوم ؟

***

حول المؤشر إلى قناة غريبة، فإذا بها حديث عن قصة راقصة عظيمة: باعت جسدها، فانتشر صيتها، ثم كبرت، فتابت، فتفرغت للدعوة الدينية. ثم جاءها عرضٌ مغري لفيلم سينمائي؛ فعادت ..

خسر الفيلم؛ فتابت، وعادت إلى الدعوة الدينية مرة أخرى !

فقال متسائلاً :

ـ من هؤلاء ؟ من هؤلاء ؟

***

حول المؤشر إلى قناة الأفلام.. وقد ارتسم الليل على الشاشة، ودخل شابٌ إلى غرفة حمراء، وألقى بنفسه في أحضان مومسٍ ـ كما يبدو ـ فلما قضى منها وطره، قالت : هلا تزوجتني ؟ فكان رده : أترضين ذلك لأخيكِ ؟

***

مرت به لحظة تأمل، ثم قال :

- هؤلاء قَوْمٌ مُّنكَرُونَ!

***

تمت

الغاضب والغائب

هرب حمارٌ نحو الترعة مسرعًا؛ فألقى بنفسه منتحرًا .

***

حصانٌ ميت ملقىً في بركة من الوحل؛ قد انتفخ انتفاخًا بشعًا .وقد اخترقته الديدان، وجالت فيه الهوام، وجرى فيه الصديد.

***

هبطت عُصْفُورَةٌ على سطح منزلٍ، تبرَّزَت عليه، وعلى التو طارت مرة أخرى، كأنها ما هبطت على سطح المنزل إلا من أجل هذا الصنيع!

***

قالت قطة كانت على نفس السطح:

ـ لن أصبح أليفة بعد اليوم في هذا الزمن العجيب !

***

قالت كلبةٌ كانت في مدخل البيت :

ـ هناك أشياء غريبة لم نعد نفهما في هؤلاء البشر !

***

وقف الفأر مذعورًا أمام القطة ..

قالت له :

ـ لن أُؤذيك بعد اليوم؛ شريطة أن تتعاون معنا ضد هؤلاء المجرمين .

***

وقف ابنُ عِرْسٍ[1] خطيبًا في جماعة البط والدجاج ـ يقول :

ـ لا كرب عليكم بعد اليوم؛ فأعينوني على ابن آدم !

***

مـر فيلسـوفٌ بالحمـار المنتحـر، والحصـان الميـت، وقـد رأى صـنيع العصفورة، وسمع مُواء القطة، ونباح الكلبة، ... فقال :

ـ هذه الطيور والحيونات يبدو أنها غاضبة .

ثم أعمل التفكير طويلاً، وقال :

ـ هذه الطيور والحيونات يبدو أنها تسُبنا وتبغضُنا !

فناده ضميره من أعماق نفسه :

ـ يبدو أن شيئًا إنسانيًا غاب بيننا!

***

تمت

[1] هو ما يُطلق عليه : العرسة

أعشـي غزة

كثيرًا ما علمته أمه، وغرزت فيه حب الجمال ..

كثيرًا ما حدثته عن جمال الشمس التي لم يرها يومًا من الأيام، كثيرًا ما حدثته عن بهاء الصباح ونضرة البساتين، وتاريخ فلسطين العريق، وقرأت على مسامعه أمهات الأدب. .

" حليم " ذلك الشاب الغزي الكفيف.. الذي لم ير النور بعينيه، إنما خالطه بقلبه المكلوم، وأحس بأشعة الشمس، بجسمه النحيف.

لم تنعم أحداقه بنور، لكن يكفيه فخرًا نور العلم والأدب، حسبه رضى الرب، وحب الناس، وقضية إنسانية يعيش من أجلها، وقدرات عقلية خارقة لم يَنعم بها إلا قلة من البَشر، وبشاشة، وسرور، وبسمة بريئة تعلوه.

لا يأسف كثيرًا كأمه على حادث الطفولة الأليم، والذي يصور يوم أن ضَرب " الاحتلالُ " " مركز الحضّانات " الذي مكث فيه طفلها الرضيع نحو أسبوع، أدى ما أحدثه المحتلون من تخريب إلى نقص الأكسجين عن عدد من الأطفال، أصيب " حليم " والذي كان من بينهم بعاهة العمى مدى الحياة.

لقد قرر الأطباء أن حليم مصاب بضمور كلي في عصب العين، سيحرمه من نعمة البصر مدى الحياة.

" حليم " يعلم جيدًا أن الصهاينة هم الذين حرموه نعمة البصر، ويشكر الله أن كتب له نعمة الحياة بينما، مات أطفال آخرون في نفس حادثة " الحضان " الأليمة .

" حليم " لا يحمل في مخيلته أحلام الأطفال الساذجة، ولا تصوراتهم البسيطة، إنما يحمل في قلبه أحلام أُمة، وتصورات فلاسفة .. يفكر بعقل العلماء، ويحس بقلب الأدباء.

لا يحزن بقليل فائت، إنما يتحمس لكثير قادم، يتقدم إلى مستقبله، يحدوه الأمل، يقوده قلب قد خالطته بشاشة الإيمان، ورغم الجارحة العليلة، إلا أنه يمتلك جوارح أخرى متقدة متحمسة نشيطة .

في الصباح : تأخذ أخته بيده، يمشي، يستنشق رحيق الخضرة والأمل، يسمع زقزقة العصافير، يستمتع بلمس مياه البحر على شواطىء غزة، يتحسس رمال الشاطىء الدافئة، يسير حافيًا على سيف الشاطىء، تهب مع هواء البحر ذكريات جميلة مضت .

لا يعرف أبدًا ألوان الزهور ولا تصاوير الأشجار، ولا رسم النخيل، إنما يستمتع برائحة عبير الحدائق الفواحة أكثر من المبصرين، إنه ذواقه للطبيعة .

يتلذذ بشدو الطيور بيد أنه لا يهمه شكلها، فقد أشبعه جمال الصوت، والترانيم...

يحدثونـه عن لـون الرمـال، ولـون البحـر، ولـون الصـدف .. لا يهمـه ! إنـه يستمتع بالطبيعة ويتلذذ بها أكثر، وهي في وجدانه الرحيب أكبر !

يـرفض لفظـة " معـاق "، يعشـق لقـب " فـارس إرادة "، فهـو لا يعتـرف بالعجز، ولا يقبل الدعة، شاعر ومتذوق وناقد، يتحدى بذاكرتـه الفولاذيـة أمهر الحفاظ، إنه موسوعة دواوين وروايات تمشـي علـى الأرض، يشـدو بصـوته الأجـش شـعر " أحمـد دحبـور"، و" توفيـق زيـاد"، و" حسـن البحيري" وغيرهم ، فيطرب النفوس العطشى، ويواسي القلوب الصديعة، فينتعش الوجدان، وتنطق الألسن في طلب المزيد :

" اسمعنا يا حليم " !

وفـي صـالونه الثقـافي المتواضـع، يجتمـع خلانـه فـي الأدب، وندمائـه فـي الفكـر، وفـي ذروة النشـوة الأدبيـة، تعتريـه لحظـة تأمـل خالطتهـا مسـحة حزن، جمدت بسمة كانت في طريقها إلى قسمات وجهه السمح .. يتسـائل الحضور :

" هيه ! ما لك ياشيخ حليم ! ؟ "

" إلى أين شرد ذهنك ؟ !"

" اتحفنا بقصيدة لشوقي . هيا ! ".

بيد أن حليم لا زال مغرقًا في تفكيره، شاردًا .

فإذا بظريف يحـاول كسر حدة الموقف بنكتـة شـامية طريفـة ، ولكـن دون جدوى، فحليم صامت، والجلسة ملبدة بالغيوم المبهمة .

وإذا بشاعر يهديه بيت شعر فيه مواساة وتخفيف، فلا يجدي مع فارس الإرادة، ولكن حليم يخرج من شردته - بتنهيدة حارة - سائلاً :

" أليس اليوم ١٤ يوليو ٢٠٠٩"

قالوا : " بلا !! أهذا الذي أخذك منا ؟ ! " ..

" أف !!! " .

فاستسمح الندماء أن يصطحبوه إلى " ميدان فلسطين "..

فسألوا : " إلى أين ؟ ! "

فأجاب : " سوف أخبركم هناك " .

وفي الميدان .. يرشدهم كأنه أبصرهم، ويوجهم كأنه أعقلهم :

" ادخل يمين .. منا هنا .. شمال .."

حتى وضعهم أمام خربة .. مبنى متهالك، دمرته صواريخ العدو ، فيه قليل من القمامة، كثير من الأسى، أشبه بكهف مهجور، فبين حليم لخاصته سبب شروده ، وأن اليوم ذكرى قصف هذا المكان منذ أكثر من عقد ونصف من الزمان. إنه مكان " الحضّان "، الذي أُخذ فيه بصره.

ثم قال مفتخرًا :

" تفجرت موهبتي إثر تفجير هذا المكان بالصواريخ ! " .

تمت

***

بار أحرنوت

دائماً يسترسل في الماضي الأليم ..

لا يقوى على نسيان الجراح ، أيام كان طفلاً صغيراً ، يلعب بالرمال الفيروزية على شاطىء" يافا" الساحر!

أيام تحولت هذه السعادة الوردية إلى أحزان و أشجار من الأسى ، بعدما تحطم بيته البسيط ، جراء القذف الصاروخي البغيض

صوت الجرافات المزعج يخترق أذنيه الرقيقتين !

(طنين طنين طنين!)..

ضربات الصواريخ المفزعة .. تهز كيانه..

يحن إلى مسجد" عثمان" شرق يافا .

لقد تعلم فيه دروس التجويد و الفقه والسيرة .

ولكن في الحقيقة هذا الحنين يصعق في كل مرة بتيار كهربي بشع ، حينما يتذكر هذا المنظر الجلل؛ الذي ظهر فيه سقوط المسجد وتدميره بالجرافات..!

يواصل الحنين بعدما ذهب تأثير الماس الكهربي المتردد ؛ و من ثم يواصل استرساله وسيره نحو مكان مسجد عثمان العتيق..

هاهو يمشي في طريقه إلى مكان المسجد ..

يقترب و يقترب ..

أصبح على مرمى البصر ..

وكلما اقترب يرتفع في وجدانه صوت شيخ المسجد..

نعم .. لقد تذكر دروس المسجد في القرآن والسيرة ..

ترن في ذهنه ترديد حلقات القرآن :

ـ أقرأ يا محمود " والتين والزيتون" ...

ـ أحسنت يا محمود !!

ـ حسبك يا محمود !

ـ يا ولد يا محمود !؟

و لا زال في سيره شارداً ، وبتابع صوت الشيخ الأجش، و هو يصف ببراعة براعة الصحابة الكرام في فتح حصون خيبر المنيعة :

ـ الله أكبر خربت خيبر !!

ـ لأعطين الراية غداً لرجل يحبه الله..

ـ أين علي بن أبي طالب ؟

ـ الله أكبر قُتل مَرحب !!

و محمود يتفاعل بكل كيانه مع الحكاية..

و لكن..!

تتوقف أحداث معركة خيبر في وجدان محمود ..

فقد وصل إلى مكان مسجد عثمان العظيم ..

محمود ينظر إلى مكان المسجد ..

يتأمل .. يتلفت .. أين المسجد ؟؟

يدقق أكثر و أكثر لاسيما وقد وقف بالفعل في المكان الحقيقي ..

آه.. يا ربي!

ما الذي ُبني على أنقاض المسجد ؟؟

بناء ضخم ، مكتوب عليه كلمات باللغة العبرية ..

هو لا يدقنها كأهلها ..

لكنه تمكن من قرأتها وفهم معناها :

بار أحرنوت للمتعة فقط.

تمت

***

ضجيج !

عليه ملامح السماجة والسذاجة، كتلك التي يراه الناسُ في حركاته البهلوانية حينما يلعب بسيارته الفارهة على الطريق الموازي للشاطىء، حيث ضجيج المصيف، والموسيقى الصاخبة، والفتيات الساقطات على قارعة الطريق ينتظرن طلابَ المتعة .. المطاعم، الملاهي، المراجيح، الجو المثير الذي يخيم على ليالي القرى السياحية، هذا الفتى يزيدها صخبًا فوق صخب، وإثارة فوق إثارة .

يبدأ رحلته في كل ليلة، يدور في المصيف بسيارته، يزيد من صخب المصيف بصخب سيارته، وصخبِ الموسيقى المجنونة التي تخرج من نافذة سيارته كما لو كانت فرقة موسيقية بكاملها داخل السيارة .

بعنين جائعتين، ينظر إلى الأجساد العارية النائمة على الشاطىء، لا ينظر عن فقر، ولا عن قلة الفتيات اللاتي يجتمعن به على مائدة الرذيلة، بل هو الفقر النفسي الذي يحس به وهو يرى النعمة تتمرغ في أعتابه . يشعر بالحزن رغم أن المسكَ يفوح على الحاضرين من أردانه .

لا يزال يدور بسيارته في شوارع المصيف، دوران العقرب في الساعة .

ساقطٌ، تافهة، وكذلك الحياة التي يحيها .

حقود، حسود، وكذلك البيئة التي نشأ فيها .

يبحث عن السعادة في كل مكان، رغم أن الناس يظنونه أخو السعادة، أو هو ابنها .

لا يزال يدور بسيارته في شوراع المصيف، دوران الصناجة التي كانت تدور على بيوت العرب.
يحسبونه حاز أزِّمة النجاح، بيد أنه يشعر أنه خُلق من الفشل ذاتِه.
حاول مرةً أن يكون إنسانًا فلم يشعر إلا بحيوانيته تطفو على سطح نفسه؛ كان ذلك في ليلة ماجنة، يبتز فيها لحم فتاة فقيرة، على جنيهات حقيرة .

يعيش وحيدًا من داخله، رغم أن خدمه وحشمه كفريق العمل على قلب رجل واحد، أو بالأحرى على قلب امرأة واحدة، فهو ممن يعد في المخانيث.

ينظر إلى جسدها، وهي تنظر إلى سيارته، وكذلك الناس.
الجميع ـ عمومًا ـ ينظر الأجساد اللحمية أوالحديدية، لكنَّ الروح فقيرة لا ينظر إليها أحدٌ، هؤلاء القوم لا يأتون إلى مثل هذه المَواخِير إلا من أجل إمتاع الجسد . وكذبوا إن قالوا : نحن نسعد الروحُ، فالرروح لا تسعد أبدًا بالمادة، والروح لا تسعد أبدًا بممارسة الجنس.

قال لها : أين السعادة ؟
قالت : في جيبك ؟
قال : إذن الأغنياء هم السعداء ! والفقراء هم الأشقياء ...
فأطرق قليلاً، يقلد حركات الحكماء ـ وهي لا تليق به ـ و قال :

لكن الواقع يقول غير ذلك. فلم نر جل التعاسة إلا في جل الأغنياء، بل لقد صار المال في هذا الزمانُ مصدرًا للحزن .

قالت : الجنيه الذي في جيبك فيه سعادتي، وفيه مع ذلك تعاستك، يعني : إن أنفق عليَّ سعدت وأسعدت ! وحبي لك يكون بمقدار ما في جيبك، وكلما نقص، نقص حبي لك.

قال : وهذا معناه أنني لا أساوي شيئًا. يا ويح هذه الدنيا !

فصل من رواية ستظهر بعد قرنين

القاهرة عام ٢٢٠٠م

وَقَفَ الشيخُ " خليل شاكر " على منبر الجامع الأزهر، في خطبة جديدة ألهبت مشاعر الجماهير، زرفت فيها العيون، وخشعت من وقعها الجلود ..وبعدما شرع لهم في سرد قصة موسى مع فرعون؛ وما آلت إليه دولة الظلم، وكيف كان النصر والتمكين للمصلحين ... قال الشيخ خليل :

أيها المصريون ! ونحن على مشارف القرن الثالث والعشرين من ميلاد المسيح ـ عليه السلام ـ أهيب بكم أن تعتبروا بالعهود البائدة من قبلكم، والأنظمة الفاسدة التي سبقتم، والأجيال الماضية الصامتة التي سكتت؛ فسكت عنها الزمان؛ اللهم إلا باللعن والسب، وقد أقبرتهم الأيام والليالي جزاء ظلمهم وبغيهم .

أقول لكم : انظروا إلى المشرق العربي تأملوا خارطته جيدًا، كيف كانت وكيف صارت . بعدما احتل اليهودُ الشامَ والعراقَ، وقد أوشكوا أن يحققوا حلمهم ـ إسرائيل من النيل إلى الفرات ـ .

وبعدما احتل الأمريكان جُلَ بلدان الخليج، وأوشكت قبضة الأمريكان أن تطال الحرمين الشريفين .

وكنتم ـ أيها المسلمون ـ على شفا حرف من ضياع المسجدين؛ المسجد الحرام، والمسجد النبوي ...

بعدما صار المشرق العربي مرحاضاً للأمريكان، وكنيفًا لليهود، وبلغتم مبلغًا شنيعًا من الاستضعاف والاستخذاء والتخلف ...

بعد هذا كله .. مَنَّ اللهُ عليكم بهذا القائد العظيم الرئيس المصري الراحل " حسام الدين فوزي "، ورفاقه من المصلحين ...

وما أنْ لفظ الشيخُ اسمَ الرئيس، حتى ضج الناسُ بالبكاء، وعلت الأصوات بالتكبير، فقد كان هذا هو ديدان الشعب المصري كلما تذكروا قائدهم ودعوته الإصلاحية؛ تلك الدعوة أحدثت تغييرًا جِزريًا في فكر الشعب المصري، تلك التي حررتهم من ربقة الظلم، وكانت سببًا في كون مصر دولة عظمى يدين لها العالم، تقف في مقدمة القاطرة تنافس إمبراطورية الصين عينًا بعين ورأسًا برأس.

واصل الشيخ خليل خطبته التي يستمع إليها العالم عبر موجات الأثير، وعبر الشبكة العنكبوتية وعبر ما استُجد من وسائط لنقل المعلومات، وقد كان خطاب شيخ الجامع الأزهر له من الأثر الكبير على نفوس الملايين؛ بل ذكرت بعض التقريرات أن خطاب فضيلته يؤثر سلبًا وإيجابًا على حركة البورصات العالمية !

قال الشيخ خليل:

ذلك لتعلموا أن الدائرة للمصلحين، وأن العاقبة للمتقين . ذلك لتعلموا أيها الناسُ أن الصمت يجلب الظلم، وأن السلبية تجلب الفقر والجهل والمرض.

أيتها البشرية الحائرة، ها هي مصر العظمى تمد يدها إليكِ !
أيتها الشعوب المستعبدة في دياجير الظلام؛ قوموا وانتفضوا ونحن معكم؛ انهضوا من كبوتكم ونحن ندعمكم .. فنحن ندعم الشرفاء في كل مكان.

قال الشيخ خليل :
... أيها الناس؛ أوشكت دولة اليهود على الانزواء؛ وتقلصت بحمد الله ثم بفضل جهادكم حتى أُحصرتْ في تل أبيب؛ وجيوشنا المرابطة هناك قاب قوسين من النصر الأكبر، وتحقيق الموعود الأعظم بزوال اليهود إلى الأبد .
قال الشيخ خليل:
... في ختام خطبتي؛ يطيب لي أن أُهنىء الرئيس المنتخب الجديد؛ السيد المحترم، والعالم الجليل، والمجاهد القدير " أحمد كمال حسن "؛ نسأل الله العظيم أن يسدد رأيه وأن يصلح شأنه وأن يأخذ بناصيته لما فيه خير للعباد وللبلاد .

هكذا أبانت هذه الخطبة شيئًا من هذا العهد .
[ذلك العهد الذي هو " مستقبلٌ" لبعض قراء هذه السطور، وهو " تاريخٌ" لقراء آخرين . بيد أن الرواية كُتبت لهؤلاء وهؤلاء .]

***

خطاب الرئيس إلى الشيخ خليل

مولانا فضيلة الشيخ العلامة خليل عبد الله شاكر ـ حفظه الله ـ

أكون أسعد الخلق إن تفضلتم بزيارتنا حيث مأدبة عشاء بمناسبة فوزنا ـ بحمد الله ـ في الانتخابات الرئاسية؛ وتعبيرًا صادقًا منا لدعمكم الكريم، وفضلكم العميم .

أحمد كمال حسن

رئيس الدولة

الثاني من فبراير ٢٢٠٠م

***

حفل الرئيس

وفي ليلة صيفية صافية؛ توجه الشيخ خليل إلى مقر القصر الجمهوري؛ تحوطُ الشيخِ نخبةٌ من طلابه ـ منهم العلماء ومنهم الأدباء ـ؛ استقبله الرئيسُ الجديد عند مدخل القصر؛ استقبالاً يليق بمكانته الإسلامية.

كانت ألحاظ الضيفان ترسل نظرات التقدير والإعجاب والتقدير نحو شخصين رئيسيين . هذا العجوز الذي يستمع إليه العالمُ كل جمعة، وذلك الرئيس الشاب الذي حصد أصوات جماهير الشعب المصري في الانتخابات الرئاسية ضد خصمه المنحك وزير الإعلام "ربيع المازني" .

كانت كلمات الرئيس المصري الجديد حماسية لاهبة؛ يصب فيها جام غضبه على انتهاكات حقوق الإنسان في دول أمريكا الشمالية ـ الولايات المتحدة سابقًا ـ خاصةً دولتي نيويورك و ألسكا.

بعد انتهاء كلمة الرئيس؛ التفَّ كبار رجال الدولة وبعض الإعلاميين والأدباء بالشيخ خليل؛ من سائل عن مسألة إلى طالب دعاء إلى راجي واسطة أو شفاعة حسنة من أمور العاجلة .

نادى الرئيس : يا قوم لقد أثقلتم على الشيخ ! دعوني أسأله في مسألة انفراد !

ضحك الحضور؛ وقد قال عبد الحميد رضوان ـ رئيس تحرير صحيفة الأهرام ـ :

لقد ضن الرئيس بالشيخ ، وأراد أن يستمتع به من دوننا !

انسل الحضور من حول الشيخ .

أقبل الرئيس نحو الشيخ كما يقبل التلميذ على أستاذه . يتحدث إليه بآملاه وطموحاته في تحقيق أهداف مصر.

ثم قال الشيخ للرئيس : أعهادك يا شيخنا أن أسير على درب إمامنا وقائد ثورتنا " حسام الدين " ـ رحمه الله ـ .

قال الشيخ خليل: اعلم يا أحمد، أن رجالاً أطهارًا بذلوا الغالي والنفيث في سبيل أن ترى مصر بهذه الصورة التي تراها الآن؛ دولة عظمى، تدور في فلكها الدول، دولة ذات رسالة سامقة، دولة ذات سيادة ثارة؛ عظيمة

الشأن، نبيهة القدر، رائقة المنظر، حسنة الاقتصاد، لا تسامى منعة، ولا ترام حصانة .

قد تعاقب على مصر حكامٌ جائرون؛ لعنتهم النواميس الربانية، ودرستهم صفحات التاريخ؛ لا يذكرهم ذاكر إلا ألحق بأسمائهم اللعنات. أُعيذك يا بني من شر الظلم . وأعيذك من شر الجبن، فلا قوام لحاكم ظالم جبان. إن العدل والشجاعة للحاكم بمثابة زراعيه الأيمن والأيسر .

هذا، وأوصيك يا بني بتقوى الله، وطاعته، وأحذرك الدنيا؛ فإنها غرارة خداعة غير باقية عليك، ولا أنت باقٍ عليها .

يا بني إن إخوانك من أمراء وملوك الخليج قد نفد مالهم؛ وغار بترولهم، وذهب ريحهم، وذلك لأنهم قد استمسكوا بحبل غير معقودة، وأسندوا ظهورهم إلى حائط مهدم، واعتمدوا على البترول اعتمادًا كليًا؛ فلما ذهب ذهبوا معهم، يا بُني اشفق عليهم، وارحم ضعفهم، وأقل عثرتهم، واحتمل دالتهم؛ تطولاً بالسماحة، واتساعاً بالعفو.

ولتكن خصالك مع أقرانك من الحكام والملوك؛ شاملة ومعتدلة؛ شاملة لكل الصفات الطيبة، ومعتدلة في حدتها درجتها؛ فلا أنت الرحيم الذي تضيع برحمته الواجبات، ولا أنت الحازم الذي تضيع بحزمه الحقوق، فابتغ بين كل خلتين سبيلاً، وخير الحُكام من أشرب قلوب رعيته محبته، كما أشعرها هيبته؛ ولن تتيسر لك المهابة والمحبة في قلوب الناس إلا إذا أكرمت كريمهم، ووقرت كبيرهم، وأخذت الحق من ظالمهم إلى

مظلومهم، وأضعفت القوي الذي غرته قوته، وقويت الضعيف الذي أذله ضعفه .

***

شوارع القاهرة

انصرف الشيخ خليل من مجلس الرئيس . عاد إلى بيته في شارع عمر المختار ـ عماد الدين سابقًا ـ . لم يكن منزله بالمنزل الفاره كمنازل رجال الأعمال، ولم يكن بالمنزل المتهالك كمنازل السوقة؛ إنما كان يتألف من طابقين يسكن في أوله؛ وولده الوحيد الدكتور يوسف ـ الجراح المشهور ـ يسكن في ثانيه هو وأولاده الذين هم قرة عين الشيخ خليل .

أما زوجة الشيخ خليل (السيدة حسناء الطيب) فكانت؛ على سن التقاعد؛ حيث كانت وكيلة لوزارة التعليم العالي. هي الآن في السادسة والستين .

وهو الآن في سن السبعين؛ لا أرب له إلا في تعليم الناس؛ قد كان أحد أعضاء مجلس قيادة ثورة يناير ٢١٥٠م؛ تلك التي قادتها " حركة العدل"؛ بقيادة حسام الدين حمدي، ومحمد عبد الحميد، وحسن غازي، ومحمد الأجرود وثلة من لا تخلو من طبيب ومهندس وعامل .. إن تعاليم حركة العدل تجري في دمه، إن صوت " حسام الدين حمدي " لا زال يرن في أذنه؛ خطبه، دروسه، حركاته، سكناته، تجري في عروق الشيخ خليل ".

***

جلس الشيخ خليل يتناول عشائه هو وزوجته على مائدة صغيرة لطيفة؛ كان عشاؤه المفضل الجبن المخلوط بزيت الزيتون مع الْكَرَفْسَ .

***

آوى الشيخ إلى مضجعة . أحس في منتصف الليل بأرق . قام فركع ركعتين . عاد . لكن النوم قد جافى جفونه . قلَّب صفحات المصحف . عاد إلى فراشه فكان الأرق عليه أشد ما يكون . قالت زوجته : ما لك يا أبا يوسف ؟ ما لي أرى الأرق في عينك ؟ قال : أخشى أن تزيغ مصر عن تعاليم حسام الدين؛ فتعود إلى عصور التخلف والظلام . إن شبح القرنين العشرين والواحد والعشرين يُطارد مخيلتي؛ وقد تحدث التاريخُ بملء فمه عن هذه الفترات النكدة .

قالت : يا أبا يوسف يهولنك ما مضى من التاريخ ما دام قد نجانا الله من هذه الأزمنة الفاسدة ! خَفِّض عليك يَرحمك اللّه، فإن هذا يَهيضك على ما بك !

نظر الشيخ خليل إلى زوجته نظرة تفكر ورضا، ثم هز رأسه مقتنعًا، وقال : اتصلي بحسين السائق؛ أريد أن أتجول في شوارع القاهرة . أريد أن أشم الهواء .

قالت : أفي هذا الوقت من الليل يا شيخ ! والساعة الوحدة صباحًا !

قال : إذنْ أَرْسِلي إلى يوسف !

قالت : ومالي والسائق أو يوسف ! لا أدعك تخرج في هذه الساعة المتأخرة .

***

الدكتور يوسف يقود السيارة بنفسه . الشيخ خليل يجلس إلى جوراه في المقعد الأمامي . ينظر من النافذة المجاورة . يتحدث إلى ولده ومع ذلك يحدق في نواحي المدينة ولا ينظر إليه.

قال الشيخ خليل: هه يا يوسف ! القاهرة باتت جنة ! كل يوم تزداد حُسنًا . هكذا العدل يابني، ينشر الخضرة والنضرة يمنة ويسرة، ذلك لتعلم أن الظلم مؤذن بخراب العمران، ذلك لتؤمن أن الفقر من نسل الفساد، وليس بين الرجل وبين نعمة تصيبه؛ إلا إصلاحٌ يجيده، و ليس بين الرجل وبين نقمة تهينه؛ إلا فسادٌ يخوضه.

يا بني، انظر إلى القاهرة وجمالها ورسوم أهلها الضاحكة، انظر إلى غدرانها وأنهارها، روضها وحدائقها، باتت القاهرة بروج مشيدة، وأركان موطدة، وقد كان في هذا هنا سجنًا للأحرار، وقد كان هنالك مدعرًا للأشرار . قد كانت القاهرة فيما مضى سجنًا مفتوحًا، قد كان يحكم هذا البلد يا بني أناسٌ باعوا أرض مصر للأجانب، تصور؛ لقد باعوا الشركات والمصانع والمصارف والأراضي، بل باعوا بعض الطرق، مثل طريق القاهرة الإسكندرية.

ضحك الدكتور يوسف ضحكة المستنكر للخبر الكذوب، قائلاً :

ـ أهذا يعقل يا أبا يوسف ؟

صمتا قليلاً .

ثم قال الدكتور يوسف : لكن قل لي ما سرُ أرقك الليلة ؟

قال الشيخ خليل : هذه القطعة الباقية لليهود في أرض فلسطين، باتت تأرقني يومًا بعد اليوم .

قال الدكتور : ولكن يا أبتي قد زالت دولتهم تقريبًا، وانزوى سلطانهم في تل أبيب، ثم إن مفاعلهم النووي المتبقي لهم هناك جعل الانقضاد النهائي عليهم سلاحٌ خطر ذو حدين.

يا أبي لقد قتلنا منهم عشرة ملايين، ولم يبق منهم إلا ذلك المليون العجوز، وأرى ما داموا قد رُدعوا فلا جدوى من إبادتهم، فضلاً عن كونهم صاروا أشبه بالأقلية الدينية، فالإحسان هنا أولى، ولعلهم ينتهون!

قال الشيخ خليل : أنت حالم واهم ! أنت لا تعرف اليهود !

تنهد الشيخ تنهيدة حارة، أعقبها بصمت، ثم قال:

هؤلاء يا بني لا يحترمون عهدًا، ولا يحبون بشراً، ولن تر منهم سلامًا ما داموا أحياء يدبون على وجه الأرض دبيبًا، وما دمت تسمع لهم ركزًا؛ فلا تطمع من ورائهم في خير؛ إذنْ لعاش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم في سلام؛ ولكن هذا لم يحدث، بل غدروا وخانوا وتعاونوا مع الوثنية ضد دين التوحيد؛ الذين هم ينسبون أنفسهم إليه؛ يا بني مثل

اليهودي كمثل الحية السوداء لا تأمن في جوارها إلا إذا قتلتها؛ فإن استطعت أن تبتغي صُلحًا مع الأَساود[1]؛ فابْشَرْ ـ حينئذ ـ بصلح مع اليهود.

قال الدكتور : أهذا ما أرق مضجعك ؟

قال الشيخ : لا ، بل رغبة ملحة بداخلي أن ألقى الله شهيدًا على الثغور في فلسطين.

---

[1] **الأَسودُ: أَخْبثُ الحيات وأشرسها وأَنكاها**

الكاتب

ـ محمد مسعد ياقوت

ـ عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والمشرف العام على موقع نبي الرحمة.

عضو مؤسس لجمعية الأعياد الخيرية .

قدم سلسلة حلقات في قناة الأمة الفضائية، عن أخلاقيات الحرب في الإسلام، وله مشاركات إعلامية في قناتي الناس واقرأ .

المؤلفات :

- نبي الرحمة، جدة، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨

- غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم .. دروس في آداب الحرب والسلام، دار النشر للجامعات، يونيو ٢٠٠٨.

- أزمة البحث العلمي ، القاهرة : دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٧م

- الاختلاط وأثره على التحصيل العلمي والابتكار-، البحث الفائز بجائزة موقع المرأة " لها أون لاين" للثقافة و الإبداع ، عام ٢٠٠٤

- صنائع المعروف، ثلاثون بابًا من أبواب الخير، القاهرة : دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م

ـ البرلس وبلطيم، بلاد الصالحين والعلماء والمجاهدين، القاهرة : دار النشر للجامعات، ٢٠٠٩م.

لإرسال أي ملاحظات أو نصيحة للكاتب أو التواصل معه:

البريد الإلكتروني :yakoote@gmail.com

الصفحة الشخصية : yakut.blogspot.com

موقع نبي الرحمة: www.nabialrahma.com

هاتف : ٠٠٢٠١٠٤٤٢٠٥٣٩

المحتوى

الإهداء ٢

مقدمة..... ٤

عطور وأحزان ٥

طفلة فنانة ١٢

السجن الجميل..... ١٧

الأستاذة ندى ٢٢

العار المصبوب..... ٢٩

لنقتل الظلام..... ٣٤

دواع أمنية..... ٣٨

العمياء..... ٤٥

الدواء المر ٥١

الأبواق الكاذبة ٥٨

ورم خبيث ٦٣

ملاحاة العظماء ٧١

المعونات ٨١

قوم مُنكَرون..... ٨٤

الغاضب والغائب ٨٨
أعشي غزة.....٩١
بار أحرنوت.....٩٦
فصل من رواية ستظهر بعد قرنين..... ١٠٠

تمت المجموعة بحمد الله